# سكة المناصرة

محمد جبريل

# سكة المناصرة

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

# سكة المناصرة

محمد جبريل

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٣٥٢٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

«من يجرؤ على إدانتي في عالم بلا قضاة، وليس فيه بريء.»

كليمانس بطل ألبير كامي

# ١

نزلَت من التاكسي عند انحناءة سكة السويقة من شارع محمد علي. واءمَتْ بين عد النقود للسائق ومسح الشارع بنظرات سريعة. اختفاء القضبان الحديدية في أسفلت الطريق يشي بتوقف الترام عن السير، البنايات الحديثة يكسوها التراب فلا تفترق إلا بنموذجها المعماري عن البيوت القديمة، القصيرة، والواجهات المتآكلة بالنشع، والشبابيك العالية، والكرانيش في أفاريز الشرفات، والبواكي التي بظَّت واجهاتها ببضائع محال بيع الآلات الموسيقية والأدوات الكهربائية والزنكوغراف والمطابع اليدوية والمجلدين والخطاطين والمكتبات والصيدليات والمقاهي والمطاعم ومحال المشروبات الباردة والبوتيكات ودكاكين المانيفاتورة والبلاستيك وأكشاك الصحف والسجائر والباعة الجائلين، والسلالم الحجرية الصاعدة على جانبَي البنايات.

مضت — تحمل الحقيبتين، كل واحدة في يد — إلى سكة المناصرة. على الناصية مسجد الشيخ منصور، بنوافذه الخشبية المخروطة، ومئذنته القصيرة.

الدماء لطخت الباب، تشي حمرتها الداكنة باحتفال، أو نذر، مضى عليه فترة طويلة. شقة الطابق الأرضي المفتوحة صارت مخزنًا للخشب.

ترامَى في صعودها السلم — هو السلم ذو الدرابزين، يهتز بمجرد استنادها إليه — اختلاط روائح الغسيل وقَلي السمك والعطن. جالت بعينيها في المكان، تحاول أن تكتشف ما طرأ في سنِي غيابها، كل شيء كما تذكره، لم يحدث ما لفت انتباهها. حتى صورة أمها وهي ترتدي بذلة الرقص، تسند ركبتَيها إلى الأرض، وتضع الشمعدان فوق رأسها، معلقة في إطارها على الجدار، طاولة المائدة تتوسط الصالة، وفي موازاتها — من الجانبين — كنبتان متقابلتان. كُسِيت الجدران بأوراق، بهتت ألوان زهورها الصغيرة، وتآكلت — في مواضع — ربما بتأثير الرطوبة.

بدت شوقية سالم متهدلة الكتفين، وأقصر قليلًا عن ذي قبل، ربما لتقدم السن. التأثيرات واضحة على وجهها، حتى التماعة العينين لم تعُد كما كانت، وحول العينين والفم دوائر رفيعة من التجاعيد.

قالت وهي تشد الإيشارب — بتلقائية — فوق رأسها: كنت أدعو الله بالنبي وآل البيت أن يعيدك سالمة، غانمة، من رحلة الغربة.

أهملت حزنها مِن أن حياةَ هالة في مسقط تحولت إلى إقامة، لا يتكلمان في الهاتف — ولو بالتلميح — عن العودة إلى مصر.

لم تبدل شوقية قطعة أثاث واحدة مما خلفته قبل رحيل هالة من القاهرة، كل شيء في مكانه، الكِليم الأسيوطي — وسط الصالة — تهرَّأ بفعل الدوس عليه، لكنه ظل في موضعه. النظافة البادية تشي بالأيدي التي عنيت بالكنس والمسح والتنفيض والترتيب، ما رُفِع أعيد إلى موضعه، على الجدار صورة لأبيها عُلِّقت على الجدار في برواز مذهب كبير. لم تكن موجودة، وضح أنها مكبرة عن صورة قديمة.

– أين بابا؟

شَكَت لها من أنه يغلق عليه باب حجرته معظم ساعات اليوم. يتسرب الضوء من تحت الباب، وأصوات هامسة، متلاغطة، وموسيقى. وضع الدش أعلى البيت ليشاهد أفلام القنوات الفضائية.

قالت شوقية سالم: أحمد تاريخ يتكلم عن موت زمن العوالم ... نحن نداري ما حدث في بيوتنا.

لم تكن العبارة جديدة على أذنيها، استمعت إليها من قبل أن تنطقها المدرسة ميسون النداف. اعتادتها في المناصرة ومحمد علي ودار العلوم، ربما نطقتها هي إن ضايقها الكلام. بدت العبارة — تلك المرة — كأنها تقصدها، كأن المدرسة تعرف المناصرة وشوقية سالم وحسين عكاشة وأحمد تاريخ. كتمت الرد فلا تبين مشاعرها، ربما العبارة عفو الخاطر، حتى إن كانت مقصودة، فسينقل ردها العبارة القاسية، وما يغيب توقعه، إلى غرف المدرسات.

هل الرقصات في ساحة ريام هي البديل لحفلات العوالم. تختلف الرقصات خلف فندق روي في اقتصارها على الشبان، يضعون المساحيق الملونة على الوجوه، يطيلون الشعور، يتثنون، يتأودون، يرتفع التصفيق وقرع الطبول والدفوف والأغنيات.

أشارت شوقية ناحية الحجرة المغلقة: العوالم راحت عليهم، أبوك يستعيد أيامهم بالفرجة على التليفزيون!

وداخل صوتها حزن: الناس الآن يكتفون بالدي جي، حتى موسيقى الزفة يضعونها على الدي جي!

كانت الفنادق تأخذ حفلات عقد القران والزفاف من السرادقات والأسطح، يُحيِي الحفلات متباينو المكانة، وإن غاب عوالم المناصرة ومحمد علي.

أقنع كلٌّ منهما نفسَه بأن شيئًا لم يتغير في حياته، غابت الليالي وحفلات عقد القران والزفاف والختان، لكن ما استطاعا ادخاره يكفل انتظام أيامهما.

آخر عهدها برقصة الشمعدان، حين عجزت عن التصرف على أي نحو أن تزيل مضايقة نزول اللبن من حلمتَي ثديَيها. أزمعت — من يومها — أن تهجر الشمعدان، تكتفي بالأداء الذي لا يعوزه مجهود.

هجرت الرقص، لما عرض عليها الخواجة بنايوتي مدرب الراقصات في كازينو صفية حلمي أن يتشاركا في إنشاء مدرسة لتعليم الرقص، يستعيد بها فن الرقص على أصوله.

اصطدما برفض القانون. سافر الرجل — مثل سواه — إلى الخارج، وأنشأ مدرسة تُصدِّر الراقصات إلى دول العالم.

فرضت الأوضاع الجديدة ظلها على الحياة في البيت، وفي كل الحي، انعكست في العلاقة بين أمها وأبيها، فطنت هالة إلى الأمر من تعبيرات شوقية سالم بيديها وملامح وجهها، كانت تستغني عن سيم العوالم بكلمات عبرية، حفظتها من راقصة يهودية سكنت المناصرة، لقنتها لزوجها، صارت لهما لغة سيم يعرفانها وحدهما.

بدا المجهول ماثلًا في الأفق، أضافت إليه رغبة هالة في السفر، حلًّا شبه وحيد لمجاوزة الاحتمالات القاسية.

قالت شوقية سالم: المناصرة الآن حاجة ثانية ... العاقل يلم حاله!

يعرفون الأحوال جيدًا، وما يواجهونه من مشكلات، لكنهم يهملون الرفض والمقاومة، كأنهم يتلذذون بالتخاذل، أيام العوالم راحت في كلام أمها، أبوها يصالح الموت، وينتظره، ينتظر القادم الذي يعرف فعله، وإن لم يرسم له صورة محددة: ما جدوى الحياة؟ ما معناها إن كانت تنتهي بالموت؟

وداخل صوته طمأنينة: المرض وسيلة الموت لاجتذابنا!

فطن حسين عكاشة إلى أنه عاش أكثر مما يجب. رحل الكثيرون من أقاربه وأصدقائه، حتى الرقاق طاطا الذي يصغره بثلاثة أعوام، مات قبل عامين، غابت عن حياته وجوه ألفها، ولاحظ في نفسه ترديده لصفة المرحوم تسبق أسماء ذكرها، الانتظار هو ما يجب

أن يشغله، يجب أن ينسى صداقات قديمة، ويهمل إنشاء صداقات جديدة، لا يعرف موعد الرحيل، لكنه يثق في قربه، وعليه أن يعد له نفسه.

وشى صوت شوقية سالم بتأثر وهي تتحدث عن الجلطة التي ألزمت زوجها البيت، لا يكاد يغادره، جلطة خفيفة فاجأته في قهوة التجارة. ترك حسين عكاشة المستشفى إلى البيت، لم يعد يغادره. حتى بعد أن تحسنت صحته، ولم يعد إلا اعوجاج بسيط في شفته السفلى، فإنه انقطع عن القهوة، واكتفى بالتليفزيون، يدير الريموت كونترول بين قنواته. تبدَّلت طبيعته، هو دائم الملاحظات والسخط والعراك.

ثار عليها لأنها حاولت أن تطيب خاطره: هذا حزني الخاص، ما شأنك أنت؟!

لم تعد ذاكرته كما كانت من قبل. كان يحفظ الكثير من الأغنيات وأسماء المغنين والراقصات، ويفرق بين التقاسيم. مال — في الأشهر الأخيرة — إلى الشرود، ونسيان أسماء ووقائع وأماكن.

لاحظت هالة أن أباها يعاني كثرة الفراغات في ذاكرته، يطيل التفكير، ومحاولات الاستدعاء، وذكر أسماء ليست لأصحابها، وغاب الترابط بين الروايات المختلفة. يعيد الواقعة الواحدة، لا يضيف إليها، أو يحذف منها، يعيدها كما رواها في مرات سابقة.

تقدمه في العمر بَدَا كالمفاجأة، ستُّ سنواتٍ آخرُ فترات غيابها عن المناصرة، كأنها — في ملامح أبيها — عمرٌ طويل.

وهو يرنو إلى عينيها: كبرت …

وقطب حاجبيه: تقدُّم السن شيء مقلق.

ونظر أمامه بعينَين غائمتَين: لا أحب أن يطول بي العمر حتى أتبول على روحي.

وران على صوته بطء: أعرف أن الموت يلامسني، مجرد لكزة خفيفة وأرحل.

واحتضنها بعينيه: بلغت السن التي يزيد فيها إشفاقنا على مَن نحبهم.

وبنظرة متأمِّلة: لكنك الآن ناضجة بما يجعلك في غير حاجة إلى نصائحي.

لم يفقد حسين عكاشة — برغم دخوله الشيخوخة — شيئًا من وسامته، العينَين الواسعتَين، الأنف الدقيق، الشعر الكثيف وإنْ غَزاه الشيب.

أزاحت الستارة بظهر يدها، واقتربت من النافذة الزجاجية، المطلة على الشارع. يميل، وينحني، ويلتوي، ويصعد، ويهبط، ثم ما يلبث أن يستقيم، نهايته — كما في بالها — شارع بورسعيد.

أصحاب البيت المواجه أضافوا إلى طابقيه طابقًا ثالثًا، وأعادوا طلاءه. تترامى — من شارع خلفي — أصوات أغنيات عمال بناء.

ابتسمت لاستعادة ما كانت تراه من زيق الشباك. ضارب الطبلة علي السروجي يدعو زوجته فلا تستجيب. يعلو صوته، ويعلو صوته. تعايره، ويشتمها. تتحول تهديداته إلى ضرب حقيقي. يرتفع صراخها المستغيث. هو مشهد كل ليلة، إن تأخَّر فيومين أو ثلاثة، ثم يتكرر ما اعتادت رؤيته.

تملكها شعور بالتعب، تريد أن تجلس، أو تنام، هي الآن في بيتها.

قالت شوقية سالم: الآن، أجد من تشاركني الأكل.

– وبابا؟

– يأكل في حجرته.

وأشارت إلى الكنبة: أنام هنا.

– لماذا؟

– هذا أفضل.

# ٢

صحت على تهيُّئها للوقوف — بيدها الفوطة — أمام دورة المياه، تنتظر خلوها، تعود إلى الحجرة لارتداء ملابسها، تنزل الدرجات إلى الفناء الترابي الواسع، تمضي إلى قرب البوابة الخارجية المفتوحة، تلقي السلام على عم مرهون في جلسته الساكنة، في حوالي الثامنة يأتي الباص، يدور حول ميدان روي، إلى طريق السلطان قابوس، تُعِد نفسها للنزول أمام المدرسة، في انحناءة الطريق إلى مسقط القديمة.

صدمها الجدار الصامت، والشباك الموارب، المطل على الشارع، والأصوات التي لم تألفها، كانت الشمس قد تسللت إلى الغرفة المستطيلة، يشغلها سريران متماثلان، جلست في أحدهما، وظل الثاني خاليًا.

أدركت فراق أمها وأبيها وصفاء والمناصرة ودرب الطاحون. دلت ساقيها من السرير دون أن تتركه، أنقذها من الارتباك صوت بَدَا أصغر من السيدة التي مضت ناحية السرير المجاور. في حوالي الأربعين، بشرتها مائلة إلى السمرة، شعرها الناعم ينسدل على جبينها، ترتدي فستانًا أبيضَ من القطن، طبعت عليه زهور صغيرة حمراء.

أدارت أكرة الباب، طالعتها رائحة النوم، لاحظت النافذة المغلقة، فاتجهت لفتحها.

– صباح الخير.

قالت نائلة أبو سمرة وهي تنفض الغطاء: صباح النور.

استغرقت لحظات قبل أن تلاحظ أنها في غرفة غير التي اعتادت أن تنام فيها. ليست هي غرفتها في بيت المدرسات المطل على طريق السلطان قابوس. آيات من القرآن استبدلت باللوحات المعلقة على الجدران.

درب الطاحون ضيق، تتسلل إليه أشعة الشمس من انفراجات صغيرة، ثم تختفي. معظم النوافذ مفتوحة، التفتت إلى تصاعد صراخ وشتائم من نافذة بالطابق الأول، في البيت المقابل.

قبل أن تدفع باب الحمام، علا صوت أبيها من الداخل. استعادت — في تراجعها — طابور الواقفات أمام حمام سكن المدرسات، قطعة الصابون في يد، والفوطة في اليد الأخرى، والعبارات متشابكة، يختلط فيها الملل والغضب والمعاني المضمَرة والنكات.

قالت أمها وهي تتأمل نفسها في المرآة: ملامحنا تفرض نفسها علينا منذ الميلاد، مشكلة لا حيلة لنا فيها.

وغالبت ارتعاشة في صوتها: مسئوليتنا — بتقدم العمر — أن نحسنها ونداري ما نلحظه من عيوب.

لم تعد الطاقة تسعفها كما كان الحال قبل سنوات قليلة. تنهض من الكنبة بصعوبة، يتملك الهمود جسدها، يرهقها الضعف المتزايد في السمع والرؤية والذاكرة. تنبهت إلى تورم ساقيها، وظهور بقع بنية في يديها، وجانبَي جبهتها، وبطء حركتها.

– لم يكن يقلقني غياب الراقصة ... أرتدي البذلة وأرقص!

فسرت الملاحظة بالنسيان الذي داخل ذاكرة أمها. تُبدِي الكثير من الذكريات والملاحظات والتواريخ والأرقام. فسرت الأمر بأنها تريد أن تثبت لنفسها — وربما لها هي — تمتعها بذاكرة قوية.

وهي تسكب القهوة في الفنجان: أعرف أني بلغت السن التي يصعب فيها الشفاء.

تحب إعداد القهوة بنفسها، تضع الماء من الزجاجة في الكنكة النحاسية الصغيرة، تعقبها بتلقيمة البن، فملعقة السكر، تنتظر استواءها فوق السبرتاية، ثم تسكبها في الفنجان.

شاعت في صوتها نبرة أَسًى: أسير في طريق معلومة النهاية!

فطنت إلى فوات العمر، ما سيأتي زيادات تتمناها، فيطول العمر.

قالت هالة: اشتقت لخناقاتكم!

عَلا صوت الأم بضحكة منفعلة: هي أحسن من هذا الموت!

كان قد مضى شهران على الليسانس، حين جلست أمام لجنة العقود. قرأت الإعلان قبل أن يستقر تفكيرها على الجهة التي تتقدم إليها. قبل أن تتخذ قرارها بالسفر، سألت عن سلطنة عمان، ثم أزمعت الرحيل إليها.

قال الرجل ذو الجلباب (عرفت — فيما بعد — أن اسمها الدشداشة): أنت خريجة دار العلوم. تستطيعين تدريس العربية والتربية الدينية.

– أفضِّل المواد الاجتماعية.

– لا شأن للأمر برغباتنا. تعملين بالشهادة التي تحملينها.

أهملَت — لسرعة ما حدث — تصوُّر المكان الذي سترحل إليه، تنقلَت بين مصلحة الجوازات وإدارة تصاريح العمل والسفارة العمانية وشركة الطيران ومَحالٍّ وسط البلد. تنبهت لمعنى قرارها لما قالت أمها: أعرف أنهم يغطون جسد المرأة!

لم تكن تعرف عن السلطنة أي شيء، ولا رأت صورًا للحياة فيها، وإن تصورت ما يعبِّر عن بلد في منطقة الخليج. تهيأت للمغامرة، والتعرف إلى المجهول.

– أذهب للعمل لا للزواج.

غمغمت شوقية سالم من بين أسنانها: ليتك تتزوجين!

ارتجف ذقنها: اللي تقطعه أحسن من اللي تمطه!

– مثل نجارين.

ومضت شفتا هالة بابتسامة صغيرة: لم يعد في المناصرة نجارون ولا عوالم.

– هل ينقصك شيء كي تسافري؟

– أعرف أن حياتنا مستورة ... ليس هذا هو السبب.

– وما السبب؟

– مجرد التغيير.

– تغيرين أهلك؟!

شعرت أن تدخل أمها بلغ حدًّا لا يمكن احتماله.

حياتي ... لا أهلي.

وتصاعد التوتر داخلها: حياتي هنا معناها الزواج ... وأنا لا أريده.

– تريدين العنوسة؟

– لكل شيء وقته.

قالت شوقية سالم: هذا حظي من خِلفة البنات.

واجهتها: ماذا تريدين؟

– أريد من ترعاني في شيخوختي.

– هل رعاية الأم مقصورة على الولد؟

– لو أن لي ولدًا ما كان ليسافر ويتركني.

– تتكلمين كأن أبي مات؟!

– أبوك منذ ترك العمل ميت حي.

– تِفِّي من بقك ... طولة العمر لأبي.

ظل حسين عكاشة بعيدًا عن الخلافات التي اتسعت بينها وبين أمها، لزم حجرة النوم غالبية الأوقات، يستمع إلى إذاعة الأغاني، أو يشاهد برامج التليفزيون. ربما تشاغل بلعب الكوتشينة مع نفسه، عرفت من تلميحات أمها أن أباها لم يعد يعاملها معاملة الأزواج، لم يناما — منذ سنوات — في سرير واحد، يغلق عليه حجرة النوم، وتنام على كنبة الصالة.

تكررت الخلافات، لكنه حرص — مثلما حرصت هي — ألا تبلغ معاملة أحدهما للآخر حدَّ الإهانة. ألفت كلماته الملمزة، تشيح ببصرها، وتستغرق في الصمت.

تملَّكها الإحساس بتقدم العمر. عرفت أنها تقترب من السن الذي تتجه فيه نظرات الرجال إلى نساء أخريات. ربما ذلك ما يفعله زوجها.

أدركت — لغياب التفاهم بينها وبين أمها — أنها لن تستطيع أن تبقى في البيت، لن ينشأ بينهما تفاهُم من أي نوع. شعرت أنها لا تنتمي إلى الدنيا التي تعيش فيها، هي دنيا تحاصرها، وتفرض عليها ما لا تستطيع قبوله. تتمنى لو أنها غادرت المكان، تشعر بانطباقه عليها، لا يتيح لها مجرد التنفس. تعيب على الفرق تأخر بروفاتها إلى وقت متأخر من الليل، يجربون آلاتهم، ويضبطونها، يطمئن كل منهم إلى سلامة النغمات، فتتشابك بالنشاز، اختلاط عزف العود والكمان والأكورديون والفلوت والمزمار والطار والطبلة، تضيف إليها الآلات النحاسية، يمسي المكان صخبًا لا تقوى على تحمله، ربما دست رأسها تحت الوسادة، يختفي أو يشحب — من النوافذ المفتوحة — ترامي أصوات العزف والغناء والإعادة والاستحسان والملاحظات الراضية والساخطة والشتائم والضحكات المجلجلة.

قالت شوقية سالم: تكرهين الموسيقى؟

وهي تشيح بيدها: أكره النشاز.

لم تستطع وداع أمها وأبيها، خشيت أن تضعف فتعدل عن قرارها. دست في حقيبتها ثيابًا قليلة، وأوراقها المهمة، وجواز السفر، انتقلت إلى بيت خالتها حسنة في الوايلي، اتجهت منه إلى المطار.

أصعب اللحظات حين أغلق باب الطائرة فيما يشبه الارتطام. أدركت أنها لم تعد في المناصرة، ابتعدت عنها حتى قبل أن تبدأ الطائرة رحلتها، الأضواء التي تعلو وتخفت، وانشغال الركاب بربط الأحزمة وتلاوة القرآن والهمس بأدعية، وتحرك المضيفين في ممر الطائرة. حلت اللحظة المفاجئة، غاب ما قبل وما بعد، لم يعد في بالها أين كانت، ولا إلى أين تتجه، قلق أشبه بالخوف سيطر على مشاعرها تمامًا، تنقلت نظراتها في ما حولها، دون أن تتأمل شيئا محددًا.

أطلت من نافذة السيارة، توقعت — كما شاهدت في صور المجلات — الشمس اللاهبة، والصحراء، والخلاء، وبحار الرمال، وتناثر العشب والخيام والكلاب والجمال والأغنام والماعز، والأشجار المتباعدة الجرداء والناس المتناثرين، وآبار البترول تلوح عن بعد، يتقاضى الوافدون من عائدها رواتبهم.

زال ما كان في تصورها؛ خالَفَ مبنى المطار والبنايات على جانبي الطريق ما توقعت رؤيته، الشوارع المسفلتة، الدلة الحجرية في الميدان الصغير، الكباري، الدوارات والتقاطعات والمفارق، المساجد، مبنى جريدة «الوطن»، مستشفى خولة، البيوت سابقة التجهيز، محال السوبر ماركت ومعارض السيارات، الجبال أقرب إلى التلال الصغيرة في الأفق.

اعتادت القدوم من المطار إلى المناصرة، تُمضي يومين أو ثلاثة لا تغادر حجرتها، تستأذن لها حسنة، فتنزل ضيفة عليها.

كلما نشأ بينها وبين أمها خلاف — إن كان لها رأي، وأصرت أمها على رأي آخر — لجأت إلى بيت خالتها في الوايلي. تدس ملابسها في حقيبة بلاستيك صغيرة، تتسحب في هدوء كي لا تراها أمها؛ وتمنعها من مغادرة البيت. حتى صفاء تكتم عنها ما تعتزمه، ثم توضح — من تليفون خالتها — ما حدث.

تشعر في بيت خالتها بالاستقرار، تكره التردد على بيت المناصرة. تكتفي بزيارات متباعدة، تنزل قبل أن يأتي الليل، تخترق الشوارع دون أن تلتفت، إلى موقف الأوتوبيسات الملاصق للمسرح القومي، تركب الأوتوبيس من هناك إلى الوايلي.

شعرت أنه لم يبقَ لها أي شيء في بيت المناصرة.

– كيف احتملت الحياة فيه؟

بدا الفرار من المناصرة هدفًا. توالت الأسئلة — عند خلوها إلى نفسها في بيت المدرسات — عن صورة المستقبل.

أدركت أنها لا يمكن أن تتنفس هواء البيت، لم يعد أمامها سوى أن تهجر المناصرة، والقاهرة كلها، إلى مدينة لا تعرفها، وإن تمنت ألا تجد فيها الحصار الذي تعانيه، الأسئلة والأوامر والملاحظات والتوبيخات.

الصورة الأخيرة التي احتفظت بها من المناصرة وهي تمضي إلى بيت خالتها، عم أحمد تاريخ يقذف بطوبة ولدًا أراد معاكسته.

أقسمت — لو ظلت أمها على رفض سفرها إلى مسقط — ألا تعود إلى البيت، حتى لو تركت بيت خالتها، لن تعود إلى المناصرة.

امتلأت الحقائب بما تشتريه من أسواق مسقط: الملابس والأحذية وحقائب اليد والستائر وأغطية الأسِرة والمفارش وقمصان النوم وأطقم الشاي وأوعية البايركس، وبعثت مبالغ كبيرة من التحويلات إلى أمها، عهدت إليها بشراء ما تحتاجه.

أغلقت شوقية سالم حجرة — فوق السطح — على ما اشترته من الآلات الكهربائية: الثلاجة ذات البابين، المكنسة، البوتاجاز، الغسالة فول أوتوماتيك، التليفزيون، الدش، الفيديو، التكييف، الخلاط، المكواة، الكبة، الموكيت، السجاجيد، الستائر.

لاحظت هالة أن أمها فقدت ميلها إلى الحركة، لم تعد تغادر موضعها على كنبة الصالة، تكتفي بالمناداة — من النافذة — على الأولاد في الشارع لشراء احتياجاتها.

ثبتت الصورة — قبل أن تعود إلى القاهرة — على حركة أمها في الشقة، لم تكن تستقر في موضع واحد، تتنقل بين الصالة والحجرتين والحمام والمطبخ. ربما أطلت من درابزين السلم لأحاديث مع الجارات.

قالت لأمها: لن أحتمل بيتًا كل من فيه أغلق على نفسه.

ووشى صوتها بالاستغراب: لو أن في البيت حجرة ثالثة، فلا بد أنك ستغلقينها عليك.

خلت حياتهما من المؤانسة، ومن فرص الكلام، تتبادلان كلمات مثل: تناولت إفطارك؟ ساعدي بابا على الخروج من عزلته ... هل تريدين شيئًا من الخارج؟ لا تخوضان فيما قد يثير المشكلات، ولا تتطرقان إلى موضوعات، ربما تجر الأسئلة والأجوبة، والتعبير عن وجهات النظر إلى الخلافات.

أشارت شوقية سالم إلى موضع في الحائط: أين الصورة؟

– وضعتها في الدولاب.

ضربت صدرها بيدها: لا زلت حية!

– طول العمر لك ... لا شأن للصورة بحياتنا الآن.

رأت الصورة عند دخولها الشقة، داخلها ارتباك، وإن تشاغلت بلحظة اللقاء، شوقية سالم على رأسها شمعدان، وضعت قدمها الحافية على الأرض، وثنت الساق الأخرى، وأحاطت خصرها بيديها.

حرصت أمها على بدل الرقص والصاجات، ووشاح كانت تلفه حين ترقص على خصرها، تودعه أسفل دولاب الثياب.

وداخلت صوتها مرارة: كنت شيئًا في زماني ... لم أكبر بين يوم وليلة!

تتذكر إجادة نبوية مصطفى تعليمها الرقص، عاملتها كزميلة، لا مبتدئة، ولا حتى مجرد راقصة.

ومض في ذهن هالة حنين إلى مسقط وبيت المدرسات ومدرسة الشيماء وروي وسوق نور الظلام ومتاجر السيب وعمان الداخل.

لماذا لم يناوشها الحنين نفسه إلى القاهرة، أثناء عملها في السلطنة؟

تنبهت لإدارة أكرة الباب: أين كنت؟

نزعت صفاء النقاب، وألقته على الكنبة: في الدرس.

أضافت للدهشة في عينيها: درس ديني في جامع سيدي منصور.

تتردد ظهر كل يوم على جامع سيدي منصور، تندس في نصف حلقة النساء المحيطة بدكة المبلغ، يلقي من فوقها الشيخ علي متولي دروسه، يصوب قراءتهم للقرآن، يحل مشكلاتهم الأسرية.

قالت هالة: مَن يتردد على دروس الشيخ علي متولي إما متزوجات أو أرامل أو مطلقات ... وضعك مختلف.

قالت صفاء: هل معرفة الدين غير واجبة على البنات؟!

تحدثت المُدرسة الأردنية ميسون النداف — بعد عودتها من بهلا — عن لقائها شيخ في المدينة القديمة، وعد بحل مشكلتها، ضيعت الساعات في الكلام عن إجادته التخاطب مع الجان، ظلوا في مسقط آلاف السنين، لسقوطها بين الجبال، يقي من الأمراض، لمسات يده تداوي جراحهم، يتفل في العين المريضة، فتُشفَى بإذن الله، يعد أعشابًا تشفي من العقم والأمراض المزمنة، له وصفات تبرئ من عض الثعابين والأفاعي، ولدغ العقارب، وعقر الكلاب. يجيد علوم السحر والتنجيم، يبدل ما هو قائم بإشارة من إصبعه، يطرد الشياطين والأرواح الشريرة والأعداء من البشر، يدرأ العين الحاسدة، والمؤذية، يبطل السحر الأسود، يأتي بالفرج، يفك المربوطين، يتمتم بالرقية، يصنع التميمة، لا ينزعها المرء حتى لو تحمم، يخيط حجابًا، مَن احتفظ به داخل ثوبه، أمن الشر والأذى، يكشف عن أماكن المسروقات، ويعرف أحوال القلوب، يصنع الأحجبة التي تجذب الأليف إلى الأليف، يوفق بين المتخاصمين.

قالت صفاء: هل عدت لتبقي؟

– يكفي غربة ثماني سنوات.

وأشارت إلى الثوب المسدل: لماذا؟

قالت صفاء: أمَر الله نساء النبي ونساء المؤمنين بالاستقرار في البيوت.

أخلت وجهها للدهشة: لماذا تعلمت إذن؟

وغالب صوتها حيرة: أنت لم تتزوجي بعد!

– هذا شرطي لمن يريد زواجي.

وهي تشير إلى النقاب: من سيتقدم لك وأنت ترتدين هذه الخيمة؟

– المتدينون يملئون الدنيا.

– يأخذ الخيمة أم صاحبتها؟

اختنق صوتها بالضيق: لم يجبرني على ارتدائه أحد.

تجدد الشجار بين شوقية سالم وحسين عكاشة حين دفع الأب لصفاء ببدلة رقص: هدية لراقصة المستقبل.

اعتادت صفاء مشاداتهما، لا تعرف الأسباب، وإن لجأ كل منهما إلى التلميز والمعايرة والشتم، ربما احتدمت المشادات ما يدفع الجيران إلى فتح النوافذ.

قالت صفاء للشيخ متولي إمام جامع سيدي منصور: هل الرقص حرام؟

أمَّن بهزة من رأسه: طبعًا.

قالت سيدة في الخمسين: الرقص في المناصرة مهنة الكثيرات.

عدل الشيخ عباءته: أعرف أن ذلك لم يعد موجودًا ... عفا الله عما سلف.

# ٣

خرجت في الغروب، ترتدي بلوزة قطنية، مزينة بورود صغيرة، وبنطلونًا، وحذاءً خفيفًا، تحمل في داخلها شوارع الحي، واختلاط مشاعر الحنين والشوق واللهفة. تعد نفسها لرؤية ما خلفته في أعوام ما قبل السفر، اقتصرت رؤيتها، أو كادت، خلال السنين الماضية، على الجبال الصخرية والخلاء والخيام، ما يغيب في القاهرة.

قالت شوقية سالم: هل كنت ترتدين هذا الزي في مسقط؟

قالت هالة: العُمانيات يرتدين العباءة، ونحن نرتدي ما لا يخرج عن الحشمة.

الزحام في سوق نور الظلام بمطرح — لم تسأل عن التسمية إن كانت عمانية، أم من الوافدين — تشعر أنها في التربيعة والخيامية والموسكي والحمزاوي، الشوارع التي اعتادت السير فيها بمفردها، أو مع أمها، وأحيانا مع صفاء. هو الزحام نفسه في شارع محمد علي. الاختلاف في نوعيات البشر، المرة الأولى التي رأت فيها هذه الأعداد من السحن واللهجات والأزياء، الجلباب، والعباءة، والدشداشة الخليجية، والبدلة، والسفاري، والجلباب القصير السوداني. خليط من الخليج ومصر والسودان والبنغال والهند والفلبين وكوريا، بلاد كثيرة ينتمي إليها السائرون في السوق. البضائع تشمل ما لم تجده في أسواق القاهرة؛ السجاد الشيرازي والكاشاني والتبريزي، المصنوعات النحاسية والفخارية، مشغولات الفضة والذهب والملابس التقليدية، الأثواب، القماش المتعدد الألوان، الملابس الداخلية، أحذية جلد التمساح، الخناجر الفضية المطعمة بالأحجار الكريمة والشيلانات والسبح والساعات والأقلام وبضائع أخرى، كثيرة، من بلاد الدنيا.

حاولت — وهي تعد أيام إقامتها في مسقط — أن تطبع كل ما تراه في ذاكرتها، تستعيده إن جاء التذكر، أو ناوشها الحنين. أبطأت خطواتها في الأرض الترابية، معظم البيوت على جانبيها من طابقين، الحارات الضيقة، المسقوفة، البيوت القديمة،

الظلمة الشفيفة، رائحة البخور، المصاطب — أمام الدكاكين — يجلس عليها التجار والزبائن، وتصف البضائع، تتوقع أن تلتقي هارون الرشيد وعلي بابا والسندباد ومعروف الإسكافي وعلاء الدين وشاه زمان ومرجانة وقاسم وبودان وزمرد وسلطان جزر الهند وشواهي ذات الدواهي والجارية تودد وشخصيات أخرى غيرها، قرأتها في ألف ليلة وليلة.

تأتي إلى بالها — كالأصداء — أيام المناصرة، الصباح والظهيرة والعصر والأصيل والمغرب والسهر حتى مطلع الفجر، صوت المناشير، دقات الشواكيش، رائحة الغراء، النداءات، الدعوات، الموسيقى والدندنات المترامية عبر النافذة، حتى خناقات أمها وأبيها ترف على شفتيها ابتسامة لتذكُّرها.

وهي تميل من محمد علي إلى السوق، شعرت أنها في سوق مطرح، الباعة والبضائع وزحام الزبائن، أعادتها اللهجات المغايرة، واختفاء العباءات والدشاديش والخناجر والحرير والشاهي، والصناديق المطعمة بالصدف، إلى ما هي فيه، أدركت أن المكان تشابه عليها، هي الآن في الموسكي، تلحظ تبدل خطواتها، تفارق التعثر، وتوقع النظرات الغريبة.

مضت في شوارع المناصرة الضيقة، الملتوية، والمتقاطعة، يخترقها إحساس بالحزن، وبالفقد، لكنها تنبهت إلى إحساس مغاير، كأنها نفضت عن نفسها عبئًا، كأنها استردت شيئًا غاليًا، تستعيد ملامح افتقدتها على أبواب الدكاكين، وفي النوافذ.

الزيارات المتباعدة، القليلة، إلى المناصرة، تركت — في ذاكرتها — كل شيء على حاله. عدا التغييرات التي لاحظتها، فإن الناس هم هم، من اعتادت العيش بينهم، تلاشى الخوف من ألَّا تعرفهم، حتى الذين غابوا والجيران الجدد لم يبدلوا الصورة القديمة.

تحرص، فلا تتلفت، لا تحول نظراتها إلا إذا تنبهت لاسمها في نداء من نافذة. ترد التحية، أو تتبادل حوارًا سريعًا، وتواصل سيرها.

هيأت ذاكرتها — في سني الابتعاد عن المناصرة — لتلاشي صور البيوت والمحال والشوارع والتقاطعات، ما اعتادته عيناها.

تشرد في التذكر. هل يتذكرونها؟

أطفال يلعبون، ولدوا في سني غيابها، تشي نظراتهم بأنهم يعرفونها، من بينهم أبناء عمومة وخئولة، المهنة الواحدة استدعت المصاهرة، وفرضت القرابة. ثمة سكان يطلون من النوافذ، يقفون على أبواب البيوت، وفي الورش الصغيرة.

المشهد أمامها لم يعد — كما كانت تراه من قبل — واحدًا، غاب التشابه، توالي الأيام ميز الملامح والتفصيلات الصغيرة.

هي الشوارع نفسها التي سارت فيها من قبل، وعرفتها جيدًا، الشوارع الضيقة، والمتقاطعة، تأملت البنايات والدكاكين واللافتات ومناشر الغسيل وما فوق الأرصفة. كل شيء على حاله، وإن خالط التذكر شيء ما، كأنها ترى ما حولها للمرة الأولى، تبينت الكثير من التفصيلات التي لم ترها من قبل.

لم تعد طوابق البيوت ولا شرفاتها ولا نوافذها بما ألفت رؤيته قبل أن تسافر في أولى رحلاتها. اعتاد سمعها مفردات: القادوم، الشاكوش، الأزميل، الفارة، المثقاب، السنفرة، المنشار، المطرقة، الزردية، الكماشة، السنيك، المتر المعدني، علبة المسامير، اعتادت وشيش وابور البريموس، ورائحة الغِراء والجملكة، واعتادت تشمم رائحة القلي في مداخل البيوت، والنسوة على العتبات ينشغلن بتنقية الأرز في الصواني الكبيرة، وبتقشير الخضر، ويتبادلن الأحاديث.

تغيرت الملامح والقسمات، تبدلت تمامًا. ران التغير حتى على الوجوه والتصرفات، وفي الدكاكين التي استبدلت بالطوابق الأولى دكاكين امتلأت بقطع الأثاث الجاهز، وما يعد للتجهيز، اختلاط روائح النشارة والغراء والأستر والكارينا.

أدركت — بتعرفها إلى الوجوه التي لم تكن رأتها من قبل — أنهم يسكنون البيوت الجديدة، الطوابق التي علت بها البيوت القديمة، من وقفتهم — بثياب النوم — على الأبواب، وفي النوافذ. حدست أنهم غير طارئين على المناصرة.

أغمضت عينيها، تستدعي مَن ألفت وجودهم في مشوارها اليومي بين البيت وشارع محمد علي: الخالة أم جمالات ساكنة الطابق الأول — أزيل ليحل محله دكان موبيليا — في استنادها إلى إفريز الشرفة بنهديها الكبيرين، يلامسان ذقنها المتهدل، أم حبيب بائعة الفجل والكرات والبقدونس في انحناءة درب المهابيل، جلسة الولد شكور على سلم جامع الشيخ منصور، يمضغ بين أسنانه ما لا تتبينه.

رحل من كانت تعرفهم. حل بدلًا منهم ناس آخرون، هم الآن جيرانها الجدد، أو أنها — بعد سني الغياب — جارتهم الجديدة.

بنايات جديدة، قليلة، حلت في مواضع بيوت تهدمت، بقية البيوت على حالها، وإن اختلفت الطوابق الأرضية في تحولها إلى دكاكين ومخازن ومعارض موبيليا. اختفت نوافذ الطوابق الأرضية، واحتل الأثاث والكارينا وألواح الخشب مداخل البيوت بما يعيق حركة الصعود والنزول. تابعها اختلاط أصوات فتح أبواب وإغلاقها، وأصوات منفردة لآلات موسيقية؛ كمنجة، ناي، ساكسفون، ونداءات، وضحكات مكتومة، وصرخات، وشتائم، وصرير عجلات يد، وتلاقي الأذان من المساجد والزوايا القريبة. على الجانبين

ورش النجارين والخراطين والصناديقية والأويمجية والقشرجية والأسترجية والمذهباتية والكرسجية والمنجدين.

سألت عن عطية.

مالت من سكة المناصرة إلى درب الفحم. خطوات، ثم مالت ناحية درب الدقاق، طالعها البيت في انحناءة الطريق إلى الدرب، طوابق ثلاثة، شغل الطابق الأرضي دكاكين، متلاصقة. أشار الرجل في المعرض المواجه إلى المدخل في الشارع الجانبي.

صعدت على السلم، بلا منور يطل عليه، أضاء السكان — في توالي الطوابق — لمبات خافتة، تساعد على تبين الدرجات. تسللت إلى أنفها روائح مياه الغسيل والتقلية والخبز والدهن والبصل والدخان. أصوات شارع بورسعيد تترامى من النوافذ المفتوحة.

ومضت صورة البيت المطل على شارع السلطان قابوس، هدوء فرضته المسافة الفاصلة بين سكن المدرسات، والشارع، وقلة المارة.

البناية أقرب إلى المدرسة: الساحة المتربة والحجرات المتلاصقة في الطابقين المتقابلين، والطرقة الدائرية، والأصوات كالهسيس، يصعب تمييزها.

تلقي السلام على عم مرهون الحارس، وهي تدخل البيت، أو تخرج منه.

أهملت — في البداية — تسلل الملل إلى نفسها من رتابة الأوقات، ما يحدث في يوم، يتكرر حدوثه في الأيام التالية: الصحو، الوقوف في الطابور أمام الحمام، الصعود إلى الباص، الدوام المدرسي، غالبية وقت بعد الظهر تقضيه في السكن، عدا النزول إلى روي أو مطرح لشراء احتياجاتها. تعلمت ترتيب سريرها، غسيل ملابسها، وكيها، إعداد طعام تعلمته من خالتها. قدوم الليل يعمق إحساسها بالوحدة.

أصعب اللحظات عندما تتناوب دورة المياه، كل واحدة تدس قدميها في شبشب منزلي، وتضع على ذراعها فوطة، وتنتظر دورها. مها الصبان تحرص على الحمام الساخن كل صباح، لا تستبدل به المياه الباردة أوقات الصيف. ميسون النداف تهمل ملاحظات المدرسات بأنها تترك باب دورة المياه مفتوحًا، تعتذر بالخوف من الأماكن المغلقة.

لم تعد حياتها تقتصر على المدرسة وسكن المدرسات. إذا نزلت إلى سوق مطرح، أو سوق روي، أو ضاحية السيب، فساعات الغياب محددة، تحاسبها مشرفة البيت على الدقائق الزائدة. تلمِّح برفع مذكرة إلى وزارة التربية والتعليم. الحال في القاهرة يختلف، نزلت — بمفردها أو مع عطية — إلى شوارع وسط البلد، قضت سهرة في الحسين، شاهدت فيلمًا لعادل إمام في سينما راديو، تمشت على شاطئ الكورنيش، أدركت — من طول الحياة في الغربة — فرق الحياة في مسقط، والحياة في القاهرة.

فطنت إلى أنها تحيا في بلد بعيد، مع غرباء لم تلتقِ بهم من قبل، ولا تعرفهم.

تلفَّع الشارع بالظلمة، عدا أضواء شاحبة، متناثرة، تسللت من خصاص النوافذ.

لاحقها شاب بالقول: يعز عليَّ أن تسيري بمفردك.

وغمز بعينه: ألا تحتاجين رفقة؟

أومأت لعبد الستار صبي الأسترجي في انشغاله بتقليب الغراء، وواصلت السير.

تناهى — من خلفها — صوت صفعة، لحقتها صرخة مؤنبة: شياطين المناصرة انتهت أيامهم.

أجهدها السير في مساكن الوطية، كرهت المكافأة التي يتيحها استبيان وزارة الشئون الاجتماعية. سلاسل الجبال كأنها بلا نهاية، تتناثر قطع الغسيل، وقطعان الماعز، وألق الشمس ينعكس في الصخور حرارة لاهبة.

جذبها الولد من ذيل فستانها.

قالت مداعبة: أنت شيطان.

عَلا صوت السيدة بنبرة غاضبة: ابني ليس شيطانًا.

قالت مهونة: أداعبه!

قالت المرأة في غضبها: تسمين الشتم دعابة؟!

نسيت!

لم تصادف في مسقط ما اعتادته من المعاكسات، تمشي — متمهلة — في شارع روي، أو سوق مطرح، أو منطقة السيب، لا تتوقع مجرد سؤال. ربما تتسلل النظرات، تتباين في درجاتها بين تعدد الجنسيات، لكن الأفواه تظل صامتة.

# ٤

محمد علي ...

لم تعثر على الكثير مما اعتادت رؤيته، قبل أن تغادر القاهرة. اختفى الكثير من محال بيع آلات الموسيقى، حلت بدلًا منها معارض الموبيليا، واصطفت المعارض تحت البنايات الجديدة. غابت قهاوي «كوكب الشرق» و«حلاوتهم» و«نبيل العراقي» و«نجيب السواق» و«السبع كراسي»، حتى قهوة التجارة حل فيها وجوه لا تعرفها. غابت وجوه ألفتها بالتردد على أفراح المناصرة. اعتادت المرور على القهوة في طريقها إلى شارع عبد العزيز، أو وهي تخلف شارع محمد علي وراءها، الطاولات الخشبية، المستطيلة، عليها مشمعات من البلاستيك، تتناثر بينها طاولات معدنية، مستديرة، ذات قوائم ثلاثة. الراديو الموضوع على الرف في زاوية المقهى، مفتوح على الدوام، سواء استمع إليه الرواد، أو انشغلوا بأحاديثهم وألعاب الكوتشينة والنرد، أو بالدندنة على الآلات الوترية. حتى شبراوي الجرسون كان ينتبه إلى الراديو عندما يذيع مواد غير غنائية، يدير المؤشر إلى حيث ترتفع الأصوات بالغناء، يختلط بالنداءات والصيحات والشتائم، وروائح الدخان المحترق.

استعادت ملاحظة أحمد تاريخ: عدا دكاكين الحِرَفيين وتجار السلع المهربة وتجار الشنطة ومستوردو الملابس، فما في شارع محمد علي إلا بقايا محال الآلات الموسيقية والمكتبات وورش الزنكوغراف، كان الشارع فيما مضى شارعًا للصحافة، تطبع فيه العديد من الجرائد والمجلات. أسماء الأسطوات العوالم على واجهات الشرفات، حلت بدلًا منها أسماء محامين وشركات ومحاسبين.

لم تشعر بالتبدل؛ البواكي والمكتبات الصغيرة والمطاعم واللوكاندات والدكاكين المفتوحة وجلسات القهاوي، علقت على الأبواب وعلى أعمدة البواكي، آلات الطرب؛ العود

والرق والطبلة والمزمار والناي والصاجات، وعربات اليد والباعة يفترشون الأرض، وسط الأقفاص والسلال المليئة بالسمك والخضر والفاكهة والجبن القريش.

تلوح في نهاية الشارع قلعة صلاح الدين.

بدت الجلالي والميراني مغايرتين لمعنى القلعة. ثبتت صورة قلعة صلاح الدين في ذهنها، القلعتان تنفصلان في الجبل العالي عن كل ما حولهما، كأنهما ليستا من مسقط.

قبل دكان تهامي الفسخاني، كان إصبعاها يمتدان بتلقائية إلى أنفها، يحكمان إغلاقه، خطوات، ثم تبدأ في استرداد أنفاسها.

يعروها إحساس مَن أمضت فترة طويلة لم تسر أثناءها في شوارع الحي. داخلتها نشوة وهي تخترق الشوارع، وتعبر تقاطعاتها. هي تسير في بيتها الذي تعرفه، الوجوه والنوافذ والشرفات ومناشر الغسيل والدكاكين وأطقم الموبيليا والتحيات والنداءات والشتائم والسباب.

حين مضت من الباب الكبير إلى داخل مسقط القديمة، طالعتها الحارات والبنايات القديمة، المتلاصقة، والمصاطب، والدشاديش، والعباءات، وعبق البخور، والجو الضبابي، استعادت شوارع الجمالية وبناياتها، وإن اختلفت اللهجة والأزياء.

قالت لأمها: منذ عودتي إلى القاهرة، يختلط عليَّ الأمر، لا أعرف إن كنت في القاهرة أم في مسقط.

يبدو عم مرهون حارس البيت في استرخائه على الكرسي أن الزمن لا يعني له شيئًا، لا شيء إلا هذا البيت، والمدرسات، والحياة التي تبدأ بصلاة الفجر، وتنتهي عقب العشاء. لولا أن شجرة القرم تشي بعمر يفوق إنشاء البيت، والمنطقة نفسها، لَتصورت الشجرة غرست لعم مرهون، معظم نهاره يستظل بها، ويلزم كرسيه عقب صلاة العشاء ساعة أو نحوها، ثم يتجه إلى حجرته يسار البيت.

يظل هادئًا، ساكنًا، يحدق فيما لا يراه أحد، يلتفت لوقع الأقدام، أو للنداءات من الباب الخارجي، أو من شرفة الطابق العلوي. يلحظ نصف الدائرة من المدرسات أمامه، تشكله محاولة الفرار من الملل، لا يجيب عن أسئلة، بل يتكلم عفو الخاطر، يروي ما تستدعيه الذاكرة، ما يفد إلى ذهنه. يعمق من الصمت صرير الجنادب والصراصير، ربما تعالى هدير موتور سيارة على الطريق، في نهاية الساحة الترابية.

يجاوز العبارات المتسائلة، المقاطعة، ذلك زمان قبل أن تولدوا، في بلد يختلف عن البلاد التي أتيتم منها. ينصح باللبان الظفاري علاجًا للكثير من الأمراض، يلحظ بعينيه

الضيقتين غياب مدرسة، يبلغنه بمرضها، يجد في اللبان دواءً لأمراض القلب والمعدة والربو وآلام المفاصل. يشير به أيضًا لتقوية الذاكرة وصفاء الذهن.

في السنوات الأخيرة، تضاعف إحساسها بالغربة، هي بعيدة عن القاهرة، ولا تتصل بسكة المناصرة.

بنايات مسقط تعلو، آلات الحفر وشق الجبال وتفتيت الصخور هي الصورة الغالبة على جانبي الطريق، تقلص الجبال، تذيبها، تضيف إلى المساحات المعبدة، الشوارع تزدحم بالسيارات، المارة يتزايدون، لكن المدينة للرجال والنساء من كل الجنسيات، تلتقي بهم في الشوارع والبيوت والمطاعم، عدا المرأة العمانية، تلمحها في السيارة، داخل السوبر ماركت، تصحب ابنتها إلى المدرسة، نادرًا ما تلتقي بها في الطريق.

وهي تسير في شارع سوق الظلام، يتداخل في نفسها شعوران متنافران بالمؤانسة والغربة، ضيق، متعرج، تغشاه في أوقات النهار ظلمة شفيفة. تعود إلى ذهنها صورة الحياة في الأسواق المتفرعة من شارع الأزهر: الصاغة، العطارين، خان الخليلي، تظل فيها بروائح البخور والمعروضات وضيق الأسواق، تستعيد وقفتها في المناصرة ومحمد علي والأزهر أمام دكاكين الفول والطعمية والكشري والممبار ولحمة الرأس.

أبطأت خطواتها وهي تقترب من الدكان، على تقاطع محمد علي ودرب طياب. ابتسمت لرؤية عطية، يتطلع إلى الطريق بنظرات شاردة. على جانبَي الباب فاترينتان، تناثرت فيهما أدوات الموسيقى، وعلى الجدران تدلت الطبول وآلات الكمان، والتشيللو، والبونجو، والشخشيخة، والجيتار، والآلات النحاسية.

نظرت إليه. لم يعرفها، أدركت أن ملامحها تغيرت، لعله يذكرها وهي ممتلئة، أنقصت وزنها خمسة عشر كيلوجرامًا، ربما انعكست في ملامحها بما لم تفطن إليه.

تنبه إلى أن أيديهما تلامستا بالمصافحة للمرة الأولى منذ سنوات كان يمسك بيدها في الطريق، يصحبها إلى أماكن تطلب رؤيتها.

ظلت على صمتها، وإن أعادت النظر إليه: ألا تذكرني؟

علت وجهه إيماءة ترحيب: هالة؟

رددت النظر فيه: لم يتغير كثيرًا عما تذكره، الجسد الطويل، النحيل، والبشرة السمراء، والعينان السوداوان، النفاذتان، كما هو في ذاكرتها تمامًا. زاد عليه صلع خفيف في مقدمة رأسه، وإن لم يبدل صورة ملامحه.

وهي تدفع حقائبها على العربة الحديدية بين زحام المستقبلين على الجانبين، توقعت أن تلتقي عيناها عينَي عطية. ربما أخبرته أمها بموعد الرحلة، فوقف في انتظارها. ألفت

وداعه لها، لا ينصرف قبل أن يلوح لها وهي تمضي داخل المطار، يحرص على استقبالها في أوقات العودة، يخبر خالته بأنه صحب هالة إلى بيت حسنة.

وهي تومئ برأسها: ذهبت إلى درب الدقاق.

وفي لهجة معاتبة: لم تنتظرني هذه المرة؟!

– عرفت أنك ستعودين، لكنني لم أعرف الموعد!

وهي تنغم في صوتها افتقدتني؟

– لا ... كنت في بالي دائمًا!

قالت معزوزة كريم الدين: أحيا أول أعوامي في مسقط وآخرها.

أردفت بلهجة اعتزاز: سأتزوج.

واتجهت ناحيتها بنظرة متسائلة: لماذا لا تتزوجين؟

ذكرت عطية، وجدت في خطبة طفولتهما ما يدفعها للحديث عن زواج لم يشغلها، ولا طرأ في بالها، وجدت في كلام الأهل ردًّا على السؤال، دون أن تتأمل المعنى، مجرد أن تُرضي الفضول.

أحست بتغيُّر نظرته إليها. لم تعد النظرة التي اعتادتها، تغير تمامًا، لم يعد هو عطية القديم، في صوته شيء من التلعثم، فقَدَ ما اعتادته من جرأة، لا يسأل، ولا يناقش، ولا يقتحمها بنظراته، هو أميل إلى الخجل والارتباك، تبدو الكلمات مدغمة. إذا تحدث فإنه يتجه بعينيه إلى الناحية المقابلة.

لم تكن تنظر إليه كغريب، هو منها، وهي منه، لا تحدق فيه، ولا تُعنَى بغير ما يقول، لا تلحظ حتى ملامسة أصابعه لذراعها أو ركبتها.

أعادت النظر إليه.

لاحظت أن شيئًا تغير فيه، ربما مالت بشرته إلى السمرة، أو أن قامته تعاني هزالًا، كانت ترتدي حذاءً بكعب عالٍ، فبدا أقصر منها.

قطع الصمت من حولهما بزفرة: أنت تركت المناصرة لعمل وعدت.

ومال براحة يده المضمومة إلى أسفل: هنا بيتك، حيث يجب أن تكوني.

ثم وهو يتلفت: لماذا يهاجر الناس؟

تعمدت الاستهانة في صوتها: طالت عشرتنا للفقر، لماذا نتمرد عليه؟

لا تذكر أنها تحدثت في السياسة، وما يتصل بها، في سنوات دار العلوم، عزفت حتى عن المشاركة في النشاط الطلابي، الانتخابات والأسر والرحلات والندوات. حتى «الكورسات»

لم تشارك فيها، قصَرت أوقاتها على المذاكرة، إقامتها في بيت خالتها حسنة بالوايلي أبعدتها عن ملاحظات أمها وتوبيخاتها.

لم تكن تتردد في إنهاء الكلام مع أي طالب يحاول أن يتجاوز صفة الزمالة.

مرة وحيدة، التقت طالبًا خارج الكلية، شدها إعجاب الطلاب بقصائده في حفلات دار العلوم، أهملت رسوبه المتكرر، اخترقا شوارع المنيل، ظنها شاعرة، فتكلم عن هوايتهما المشتركة.

وهي تجول بعينيها في المكان: لماذا هذه الوقفة؟

– قسَّم أبي وقت المحل ورديتين بينه وبيني.

أردف بلهجة متصعبة: لا أجد وقتا لاستكمال رسالتي للماجستير.

التقط تمازج التساؤل والابتسام في عينيها: عن استخدام آلات الغرب في الألحان العربية.

وشت لهجته باعتزاز: جعلت الكمان آلة أساسية في التخت الشرقي، طوعتها لعزف الألحان الغربية.

أردف في لهجته المعتزة: تبينت أن الآلة الغربية يمكن أن تؤدي أي لحن مقاماته عربية.

ومضت عروض للموسيقى السيمفونية، شاهدتها في تليفزيون مسقط. لم تستطع التخلص من تداخل آلات المناصرة، يتداخل في أذنها الكونترباص والناي والرق والكمان والفيولا والتشيلو والقانون والربابة والأورج والأكورديون والساكسافون.

ومضت في عينيها بارقة تذكُّر: وجدت في دولابي كتابًا استعرته منك قبل سفري.

ثم وهي تضغط بإصبعها جانب جبهتها: كتاب في الألحان الشرقية.

أطلق ضحكة يخفي بها انفعاله: لعله من كتب المعهد ... كنت في السنة الأولى!

– لم يعد عندي للقراءة إلا ما أختطفه من الوقت.

ثم غيَّر نبرة صوته: أجيد العزف على معظم الآلات، لكنني أحب القانون والفلوت.

ولاح في وجهه طيف ابتسامة: تمنيت أن أصبح بهما موسيقيًّا، أو دارسًا للموسيقى.

ثم وهو ينقر بإصبعه على جبهته: لو أني أمتلك وقتًا ربما أعددت رسالة دكتوراه عن آلة الناي.

سكت، استحثته بإيماءة على مواصلة الكلام.

– تعبر عن الحزن ولا تخلو من التطريب.

لانت لهجتها: ما يمنعك؟

– أقف في المحل للرزق لا للفرجة على الناس!

وقال لنظرتها المتسائلة حول بقايا آلات موسيقية في الزاوية، وراء الواجهة الزجاجية: هذه آلات مستعملة ... روبابكيا.

آخر ما استمعت إلى الكلمة في القاهرة، في المناصرة والوايلي وشوارع المدينة. خراب هي المرادف في مسقط لكلمة روبابكيا، الخراب لا يُباع، تنقله عربات القمامة إلى الوادي الكبير.

وهي تكوِّر فمها في دهشة: ما قيمة شهادتك في هذا الدكان؟

وعلا صوتها بالسؤال: هل اخترت عملك؟

– مؤقتًا.

وغالب شعورًا بالخذلان: أي مشروع يحتاج إلى مال.

– والوظيفة؟

– لم أجربها.

– جرِّب!

– هل تعملين بنصيحتك؟

فطن إلى أنها تهم أن تقول شيئًا، لكنها ظلت صامتة.

– دراستي في أكاديمية الفنون ليست بعيدة عن وقفتي في المحل.

وهي تغالب الشرود: شهادتك لا تتيح لك وظيفة.

وضيقت عينيها كأنها تركز على شيء ما: استبدلت بها وظيفة لا تصنع مستقبلًا.

سلاسل الجبال من وراء النافذة المفتوحة، نبهتها إلى اختلاف المكان. لم تَعُد في القاهرة. أضاف إلى ارتباكها سؤال الرجل ذي القامة القصيرة، النحيلة، والبشرة السمراء، والدشداشة، والمسرة: جئتِ لتدريس الدين واللغة العربية؟

رسمت ابتسامة على شفتيها، تداري بها ارتباكها.

وهو يتفحص الحذاء المفتوح، والبنطلون الجينز، والبلوزة البيضاء، وعلى موضع الصدر وردة حمراء كبيرة: أنت خريجة دار العلوم؟

ثم وهو يومئ بعينيه ناحية النافذة: ستعملين في العلوم التي درستها.

طال ابتعادها عن القاهرة، لكنه لم يقطع الأمل في عودتها إلى المناصرة، ومضات تعيده إلى أيام خلت: جلوسهما على الدكة أمام صندوق الدنيا في ميدان الرفاعي، اختراق زحام مولد الحسين، صيحاتها الساخطة على الغناء المترامي من الشقة المقابلة، مذاكرتها

له في الحجرة المطلة على درب طاحون، سيرهما في الطريق الصاعد إلى القلعة، جلوسها إلى جانبه في سينما ديانا، يشاهدان فيلمًا لا يا يذكره.

لامست ظهر يده بأطراف أصابعها: كنت دائمًا أقرب الناس لي.

في آخر لقاءاتهما، قبل أن تغيبها الإعارة، عاودت تذكيره بالسنوات الثلاث التي تسبقه بها.

هل تبدل الحال؟

قالت لمجرد أن تبدد الصمت: لم يبقَ إلا أن تتزوج.

استطردت للدهشة في ملامحه: أنا على ثقة أن الكثيرات يتمنين القرب منك.

لاذ بالصمت، ربما ليكسب وقتًا يتيح له التفكير فيما يجب قوله: المشكلة ليست في مجرد الارتباط، الارتباط بمن؟!

وتبدلت نبرة صوته: إذا شعرت بانجذاب نحو فتاة، فإني أحرص أن أصاحب رأسها أولًا.

أردف لنظرتها المبحلقة: يصعب أن أقيم علاقة مع فتاة لها رأس فارغ!

– تزوجت أختك ... لماذا لا تتزوج؟

– وافقت فاطمة على من طلب يدها.

وأشار إلى نفسه: أنا على فيض الكريم.

تعمدت تبديل الكلام: كنت أتشوق إلى صيف القاهرة الذي تُبدِّد حرارته مروحة، لما عدت شعرت أني لم أغادر الخليج!

قالت مها الصبَّان وهي تنظر بقلة حيلة إلى دوران المروحة في السقف: حر ... يجبرني على الاعتراف أني قتلت!

جلست على السرير لصق الجدار، ركبتاها مرفوعتان لأعلى، وذراعيها ملفوفتين حول ساقيها.

تعاني الحرج للأصوات التي تصدرها الغازات الكثيرة في بطنها، لا يُدرَى سببٌ لها، وهي تلجأ إلى المسلوق، وتحرص على دواء للهضم.

قالت ميسون النداف بنبرة متصعبة: نحن ندفع ثمن ابتعادي عن الأردن ... وابتعادك عن لبنان!

# ٥

سبقته في اختراق شارع محمد علي إلى ميدان المنشية. عبرا الميدان إلى الشارع الفاصل بين جامعي الرفاعي والسلطان حسن.

أخذهما السير إلى ما حول القلعة. مالا في أوقات سابقة من «هضبة» السلطان حسن والرفاعي إلى الخيامية، ينتهيان إلى ميدان باب الخلق، يحاذران الشوارع المزدحمة، كل القاهرة زحام، زحام مسقط في مناطق ما بين الجبال: مسقط القديمة ومطرح وروي والحمرية والوادي الكبير، الجبال آفاق تحيط بها.

تترك له راحة يدها يضغط عليها بكفه، ترد على أسئلته وملاحظاته، بحيث لا تظل صامتة، مجرد كلمات قد لا تجيب عن الأسئلة، ولا تتصل بما يبديه من ملاحظات.

قال لمجرد أن يتكلم: العيش في الخليج يستدعي السُّكنَى — بعد العودة — في الزمالك أو المهندسين!

– لا أتصور الحياة بعيدًا عن المناصرة.

داعب دملًا أسفل ذقنه: مَن كانوا يسكنون المناصرة هجروها.

– أعرف! استُبدِلت المناصرة الاستيراد بالتصدير بعد أن استغنت الورش عن عمالها. توقف الحال!

أمَّن على قولها بنظرة حزينة: المناصرة الآن معارض لموبيليا دمياط.

أضاف في حزنه: معظم ما في المعارض من خشب السلوتكس، كرتون مضغوط تخفيه الفورمايكا.

– بضائع الصين تجمع بين أسواق مسقط والقاهرة!

حدق فيها كأنه يتأكد من استيعابها: الخوف من واردات الصين.

– ظروف الناس تدفعهم لشراء الأرخص وليس الأجود.

يكرر أبوها سخطه على أن البنايات الحديثة استبدلت بمحال الآلات الموسيقية معارض للموبيليا. لم يكن في الأمر ما يحزن لو أن الموبيليا من صنع ورش المناصرة، فالظروف واحدة، لكنها استوردت الموبيليا الصينية والتركية. تكلم عن الأسطى عبد الفضيل، على ناصية درب الفحم، بعد أن قلت فرص صناعة الأثاث، قصر عمله على إصلاح قطع الأثاث القديم.

ظلت صامتة لتلاقي رفع الأذان في الرفاعي والسلطان حسن، تنبهت إلى عطية يسير جوارها في الشارع الواصل بين المسجدين. المئذنتين. شردت، فتصورت نفسها في شارع روي، ما بعد العصر، أنقذتها الأردنية النداف من ملل الوقت، تدرك في تلك اللحظات غياب الصلة بين المدرسات، كل واحدة في حالها. وجدت في دعوة ميسون ما يقتل الوقت، لا تأخذها الهواجس إلى ما يحرك قلقها. غادرت ميسون بيت خالتها إلى المطار، لكن الحنين إلى المناصرة يشغلها.

غيبت نائلة أبو سمرة شعورها بالوحدة عقب العودة من المدرسة، في أيام متقاربة تنزلان معا في جولة للشراء، هي فرصتها في الفرجة على الشوارع والأسواق، التعرف إلى ما لا تعرفه من مسقط. تسيران في شارع روي حتى نهاياته، تتباطأ خطواتهما، تتأملان حركة الشارع أو واجهات المحال. تشيران — يوم الجمعة — إلى تاكسي، نائلة دائمة المسح بكفها على جبهتها، حتى لو خلت من العرق. تبدو عيناها صغيرتين من وراء النظارة الطبية المقعرة. أذهلت هالة بحفظها لقصائد كثيرة من الشعر العربي، ترفض أكل اللحم، تتصور الحيوان، أو الطير، حيا في فمها.

مجامر البخور في سوق نور الظلام تنقلها إلى البخور في الحسين، إلى دكان فاروق في نهاية شارع الموسكي. ربما نقلها السياح حولهما إلى اختلاف السحن والأزياء في مسقط، الدشاديش والعباءات والعقالات والعمائم والمسرات والنعال.

مع أنهما اعتادا الخروج معًا — حتى في أيام إجازتهما الصيفية — فإن القلق أربك خطواتها، وهي تسير إلى جواره في شوارع وسط البلد. تميل جولاتهما إلى اليسار، من محمد علي إلى ميدان العتبة، يخلفان عبد العزيز إلى عدلي حتى نهايته، ثم انحناءة عبد الخالق ثروت حتى يعودا إلى محمد علي، يتأملان فاترينات الدكاكين والإعلانات وزحام الطريق، ربما جلسا في الإكسلسيور، أو زينة، أو جروبي عدلي. استجابت لدعوته ذات عصر بدخول سينما ميامي.

رآهما — في المرات الماضية — ناس من المناصرة. يختلف الأمر هذه المرة، هي تشعر بما قد لا يشعرون به، أو يطرأ على أذهانهم، يتسلل إلى داخلها الخوف، والحرص على المداراة.

هي التي عرضت لقاءه بعيدًا عن البيت. تنبهت إلى أنها لم تجلس إلى عطية منذ عادت إلى القاهرة قبل أشهر، لا يتحدثان إذا التقيا مصادفة. ذلك ما كان يحدث قبل أن تعود، يكتفيان بابتسامة، وهزة رأس متبادلة.

المرات القليلة التي التقيا فيها اكتفيا بعبارات التحية، والسؤال الذي لا ينتظر إجابة، مجرد كلمات لا تعني شيئًا، أنا أكلمك، وأنت تكلمني، الكلام هدف في ذاته، بديل للصمت، يجد كل منهما راحة في رفقة الآخر، في استعادته ما جرى في محمد علي والمناصرة، وفي الصور التي عادت بها من الحياة في السلطنة.

التقيا في جروبي عبد الخالق ثروت.

جلسا في الحديقة، يجاورها صالة تناول المشروبات، والمطعم الكبير. يجدان دائمًا ما يتحدثان عنه؛ زحام القاهرة، وحر واختفاء العوالم، وزيادة معارض الموبيليا.

قال لنظرتها المتسائلة عن باعث استضافته لها في الشاي الهندي: أحببت أن تستعيدي أيام الخليج.

ومضت بسمة خفيفة على شفتيها: كنت تحب القراءة؟

في صوت حاول أن يكون هادئًا: على الكومودينو بجوار السرير كتابان لا أمل قراءتهما: ملحمة الحرافيش لنجيب محفوظ وقصائد صلاح جاهين.

اتسعت ابتسامتها: ألا تقرأ كتبًا أخرى؟

– سألتِني عما أحبه، لكنني أقرأ ما يصادفني.

لم يقترح مكانًا للذهاب إليه. أطالا التوقف على ناصية الرصيف أسفل جراج الأوبرا. مضى في هيئة من يعرف طريقه إلى نهاية شارع عدلي، ثم مالا إلى شارع طلعت حرب.

لمحت اللافتة، فحدست المكان الذي يقصده.

العفوية هي الفرق بين الشاي الهندي وما ألفته من المناطق هندية الطابع في مسقط: الأضواء الشاحبة، والستائر، والصالة المؤثثة، والموكيت، والجرسونات ... ذلك كله، يختلف عن الأحياء العشوائية والبرياني والسالونا والرائحة المميزة للأجساد. جلسا في ريش وجروبي ولا باس وسفنكس، وفي النيل هيلتون وشبرد وسميراميس والكونتيننتال وهيلتون رمسيس. مسقط إنتركونتيننتال هو الفندق الوحيد الذي زارته، دعت الناظرة العُمانية ريم الحجري مدرسات الشيماء لحفل عيد ميلادها.

جلسا متجاورين في سينما ميامي، تكرر ترددهما — قبل أن تسافر إلى مسقط — على دور السينما القريبة، وفي وسط البلد: أولمبيا بشارع عبد العزيز، سينما إيديال بشارع عماد الدين. عرفت الطريق إلى دور العرض الأول: ميامي، مترو، ديانا، ريفولي، راديو، قصر النيل.

اكتفيا بتعليقات سريعة على أحداث الفيلم. أحست بالغربة، لعل ذلك هو ما أحست به اللبنانية مها الصبَّان، وصالة سينما «ستار» بالوادي الكبير خالية إلا من زوجين وثلاثة أبناء يشاهدون فيلم حسن يوسف وميرفت أمين «الجبان والحب».

قال الرجل — بلهجة خليجية — لنظرتهما المستغربة: طلب المصريون أفلامًا عربية ... السيادة في مسقط للأفلام الهندية!

اجتذبتها لمة المدرسات الساكنة، النظرات تتجه إلى ما تبينته عند جلوسها، استدعت المشاهد في رقادها على السرير، فاجأها الصراخ، تلفتت خائفة، أدركت أن الصوت الملتذ تصاعد من داخلها، لم تتعمده. خشيت المفاجأة، يدخل الحجرة من يفضح الفعلة، غطت أسفل جسدها، ومالت ناحية الجدار.

سبقت تهيؤ عطية للمناداة على تاكسي. وافق أن يعودا — على أقدامهما — إلى المناصرة. اقتحمته نشوة لم يشعر بها من قبل، عبرا الطريق إلى شارع عدلي، سارا حتى ميدان الأوبرا، اخترقا الطريق الموازي لكوبري الأزهر، انتظر حتى اشترت شايًا وصابونًا من الباكية على يسار محمد علي، ثم مالا إلى الشارع.

في انحناءة الطريق، بدا سوق السيب — في شارع عبد العزيز — بناسه وباعته وبضائعه وزحامه، الاختلاف في تعدد الأزياء والزي الواحد، واللهجات التي يصعب فهمها — أحيانًا — واللهجة التي تعرفها، وتتكلم بها.

تعددت لقاءاتهما، قد لا يمر يوم دون أن يلتقي بها، ربما التقاها أكثر من مرة في اليوم الواحد. طلبت أن يدعوها إلى أكلة نيفة في الحسين، وشرب شاي بالنعناع في الفيشاوي، فطنت إلى أن معظم ثيابها صيفية. الجو في مسقط ما بين حر، وحر شديد.

تأتي أيام ربيعية، أو خريفية، لكن مسقط لا تعرف الشتاء، لم تعرض في أسواقها غير ثياب الصيف الدائم، طلبت أن يرافقها لشراء ملابس.

هذه المرة عانى ارتباكًا غابت أسبابه، التقيا من قبل بمفردهما، لم تتقاطع نظراتهما مع نظرات الآخرين، ولا تعددت الأصوات التي تشارك في الحديث. هي هالة، وهو عطية، لا أحد سواهما.

حارت في حقيقة شعورها نحوه: تكبره بثلاث سنوات، هل خرجت معه لأنها تحبه؟ أو لأنه لا يوجد في حياتها أصدقاء؟ أو الطبيعي أن يكون ابن خالتها هو الأقرب إليها؟

نظر إليها، ونظرت إليه. كأن كلًّا منهما يحاول اكتشاف الآخر. احتارا ماذا يقولان، ولا كيف يتصرفان، ظلا ساكنَين، صامتَين.

فاجأها بالقول: ماذا بقي في رأسك من الخليج؟

– مضى وقت قبل أن يزول إحساسي بالغربة.

ثم وهي تعد على أصابعها: مفردات الكلام ... الطعام ... العادات ... كل شيء.

رائحة طشة الملوخية تعيدها إلى مسقط، ليست الرائحة نفسها، هي مزيج من روائح البرياني والمنسف والهيل والبهارات والكبة والتبولة والمقلوبة، والأرز بالكاري، والسالونا، والتكلم باللهجة الخليجية. اشترت من سوق باب اللوق سخانًا كهربائيًّا، وصلته بسلك إلى الفيشة على جدار غرفتها، اعتادت خيرية أبو الرضا إعداد الشاي على سخان مماثل، تقاسمها احتساءه.

نبهت إسلام ابن خالتها حسنة إلى خطأ فعله، كور الأرز في راحته، ضغط عليه، ثم قذف به في فمه.

– لماذا تأكل بأصابعك؟

قالت حسنة مستغربة: مَن لا يأكل بأصابعه؟!

فوتت الملاحظة، أردفت بنبرة مؤنبة: لا تأكل بيدك ... كل بالملعقة.

شوح بيده: نسيت!

لم تكن تفعل ما أمرته به، تشارك المدرسات بيديها في تقطيع اللحم، والقبض براحة اليد على البرياني، والدفع به إلى الأفواه، قلدتهم حتى في ابتلاع الطعام، دون أن تمضغه.

قالت في لهجة معتذرة: في مصر نأكل بأصابعنا وليس براحة اليد.

قالت السورية ألفت وهي تشير إلى أصابعها المغموسة في الطبق: لهذا اخترعوا أدوات المائدة.

تخلت عن عادات كثيرة ومفردات كانت تمارسها بعفوية. أكلت الهريس والهريسة والمشاكيك والشوربة، والسمك المشوي مع الأرز، أو الخبز أو الخبز المظروف وخبز الرحال، والتمر العماني، والسالونة، والمشاكيك، البرياني طبق أرز باللحم، السمبوسة طعام رئيس في الوجبة العمانية، ربما الكلمة هندية، لكنها الأكلة العمانية المفضلة. تأملت واجهة مطعم يقتصر على تقديم لحم الكلاب، أصحابه وزبائنه فلبينيون.

أعلنت نائلة أبو سمرة اعتزامها فتح دكان لبيع الفول، والأطعمة المتداخلة فيه: الطعمية، البصارة، الفول النابت. ماكدونالد وكنتاكي وويمبي ومحال البيتزا لا تصمد أمام الفول المدمس.

بصقت هالة بقايا طعام علقت بأسنانها: الفول أكلة المصريين، والتبولة أكلة الشوام، والكسكسي أكلة المغاربة.

قالت معزوزة: البرياني أكلة العمانيين.

استطردت ميسون: هي وجبة هندية.

قالت هالة مداعبة: حصلت على الجنسية!

وأطلقت ضحكة مكتومة: على العرب من أبناء الخليج أن يطيلوا الصلوات فلا يجري استفتاء يؤدي إلى سيادة الآسيويين!

قالت لها: حتى أحدث الأزياء حصلت على الجنسية العمانية. تحت العباءات مودات من عواصم الدنيا!

حدجته بنظرة مستفهمة: هل تريد السفر إلى الخليج؟

نفض رأسه: لم أناقش الفكرة.

– لماذا؟

– أستطيع أن أحقق ما أريده في مصر، إلى جانب أني لا أضمن وجود فرصة عمل حقيقية في الخليج.

– وماذا يفعل مئات الألوف من المصريين هناك؟

أدركت أنه لكي تظل علاقتهما، يبتعدان عن المناصرة، ويعودان إليها، يلتقيان، يتناقشان، لا بد أن تتخلى عن كل ما يشغلها، التبدل الذي تريده.

وهو يحاول أن يلملم مشاعره: كنا نعتبر السفر من القاهرة إلى بنها غربة نرفضها!

اتسعت ابتسامتها، فتوضحت الغمازتان في وجنتيها: لا بد أن لك دخلًا لا نعرفه.

السلطنة، الخليج، الريال ... كلمات مبهمة، لم تكن تثير خيالها إلا بما تقرؤه، أو تشاهده، من أخبار وتحقيقات وصور، أو العباءات والدشاديش والعقالات المتناثرة — أشهر الصيف — في شوارع القاهرة.

في اليوم التالي لنجاحها في الليسانس، أعلنت نيتها في السفر: لن أضيع عمري في مرتب لا يطعم دجاجة.

قالت شوقية سالم: أنت في الثانية والعشرين؟!

– يعني رشيدة، أستطيع أن أتكفل بنفسي!

بحلقت شوقية سالم بدهشة: لست أكثر من طفلة!

قالت هالة: ستظل هذه نظرتك ما لم أثبت لك أني لم أعد هذه الطفلة!

حين أظهرت اعتراضًا على بروفات الفرقة في الصالة، واجهتها أمها بالشتم.

مثلت تصرفات أمها، وكلماتها القاسية، دافعًا للرفض المعلن. لم تعد تكتفى بالتلميح، وزادت شوقية سالم من عباراتها القاسية. بدا السفر — عقب حصولها على الليسانس — حلًّا يريحها، ويريح أبويها. كان أبوها يناصر آراءها، لكن اختياره المسالمة والصمت، عمق إحساسها بالغربة، وبضرورة الرحيل.

قالت شوقية سالم: أنا مريضة، أخاف أن أتركك وحدك في الدنيا.

– كلام يصلح قبل سفري!

– هل سرت بمفردك إلى ما بعد العتبة؟

– هذه فرصتي لرؤية الدنيا ... ما بعد العتبة، وكل شيء!

– لن تستطيعي تحمُّل مسئولية نفسك.

– هذا تصورك.

استطردت دون أن تنتظر إجابة منه: كيف تخرجت في الجامعة إذن؟

لم تكن المغامرة في داخلها، أن تصبح مستقلة هو ما غادر بها المناصرة إلى بيت حسنة، وإلى مسقط.

وشى صوته بتأثر: المناصرة الآن مجتمع سفر.

حدجته بنظرة متسائلة: ماذا تعني؟

– إنها تعكس تأثيرات الخليج على حياتنا!

تستغرب في نفسها تزايد الإحساس بالغربة، إذا رأت وجهًا مصريًّا لا تخطئه في شارع روي، أو سوق نور الظلام.

تطيل التوقف عند بائع أشرطة الكاسيت، بالقرب من سينما عمان بلازا. تشتري الأشرطة الحديثة، تبتسم — وإن اكتفت بكلمات مقتضبة — لأسئلة البائع عن أخبار أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وفايزة أحمد ووردة ونجاة، اسألني عن عوالم المناصرة وظروفهن القاسية، الاعتزال نهاية وحيدة في الأفق القريب.

قالت لنائلة أبو سمرة: ألاحظ أنك لا تسافرين إلى القاهرة حتى في الإجازة.

– لماذا أسافر؟

أهلك ... وطنك ...

– ابني في حضني ... ووطني حيث توجد راحتي!

تتكلم وتتكلم، بينما يتمعن في ملامحها، وتعبيرات جسدها؛ العينَين الواسعتَين، العميقتَي النظرة، الأنف الدقيق، الشفتين الرقيقتين، الشعر الأسود الناعم المضفور في ضفيرة واحدة، ألقتها خلف ظهرها.

أول ما لاحظت في بيت المدرسات اختلاف اللهجات والعادات والتقاليد والأزياء، سكلانس هو التعبير الذي همست به لنفسها.

افترقا عند العودة في ميدان باب الخلق. مضى في حسن الأكبر، ومنه — في خطوات متمهلة — إلى الدروب والعطوف المتشابكة، يتيح لها الوصول إلى المناصرة قبله.

وهو يلتفت وراءه، أحس شعورًا بالفقد في متابعة صعودها السلم، يتمنى لو أن القرب ظل قائمًا، لو أنهما لا يفترقان.

شعور بالانتشاء يداخله وهي إلى جانبه، مجرد أن تكون إلى جانبه في بيته، أو بيت خالته، أو حين تزوره في الدكان. ربما يلتقيان بالقرب من المناصرة، يستكملان السير، يوصلها إلى البيت، ثم يمضي إلى درب الطاحون، يجتر شعور الانتشاء لفترة تطول أو تقصر، يستعيد طريقة كلامها، نبرات الصوت، ارتسامات المعاني في ملامحها.

قالت لأمها: في سكن المدرسات كنت أكتفي بالاستئذان في التأخر. توافق المشرفة، لم أكن أنتظر «سين وجيم» كما يحدث في هذا البيت.

تنهدت الأم: أخاف عليك.

ترامى رنين منبه، الموعد نفسه كل صباح، عرفت أن شخصًا ما يضبط وقت استيقاظه. الستارة الثقيلة — بامتداد النافذة — لا تشي بالوقت، إن كان نهارًا أم ليلًا، تشعر بطول الرقدة، تقرب ساعة اليد من عينيها، تتعرف إلى الوقت الذي هي فيه.

جذبت طرف الستارة، امتلأت الحجرة بنور دافق. فتحت النافذة، تناهى صخب الدرب في أسفل؛ النداءات والشتائم والدعوات. ثمة رائحةٌ ألفت تضوعها.

– سأبحث عن شقة قريبة من هنا …

استطردت دون أن تنتظر إجابة من أمها: لا أتصور الحياة بعيدًا عن المناصرة.

أهملت في إجازة صيف دعوة فادية القاضي أن تحمل لها أشياء إلى القاهرة: وزني أقل من المسموح، ووزنك زائد. تصورت فادية تأتي من مصر الجديدة إلى المناصرة، ما سافرت للابتعاد عنه، تقترب منه فادية، تراه، تكشف ما حرصت على إخفائه.

تبدلت مشاعرها، هي تنتمي إلى المناصرة، يأخذها السير في الشوارع والدروب والأزقة، تُحيِّي، تُسلم، تسأل، تجيب، تطيل الجلسة أو الوقفة في مداخل البيوت، ربما صعدت إلى صديقات في الطوابق العليا.

كانت السودانية معزوزة كريم الدين تفتح غرف بيت المدرسات، تكتفي بالتحية، أو تدخل للدردشة مع المقيمتَين في الغرفة.

قالت لها هالة مداعبة: أتصورك أحيانًا في ثلاث حجرات أو أكثر.

تبدي سعادتها للملاحظة: أنا صديقة الجميع.

تجولت في شوارع المناصرة. صحبها جيران وسماسرة. تأملت واجهات البيوت، رَقَت سلالم، عاينت شققًا. لم تعد الشقة ذات الحجرات الثلاث تناسبها، تقيم — بمفردها — في إحداها، تجعل الصالة للأنتريه، تخصص واحدة من الحجرتَين لأمها وأبيها، يتجاور الصالون ومائدة الطعام في الحجرة الثانية.

مضت إلى الأحياء والشوارع المجاورة؛ اعتادت اختراق الدروب والشوارع الضيقة والحواري والدكاكين ورصات الأثاث إلى الأحياء والشوارع المجاورة، تعبر لوكاندة البرلمان، ومبنى البوستة، والمطافي، ومسرح الأزبكية، تمضي إلى شوارع محمد علي، بورسعيد، عبد العزيز، الموسكي، الأزهر، الجيش، القلعة، الرفاعي، الدرب الأحمر، الجمهورية، تبطئ خطواتها — بالتأمل — في شوارع وسط البلد؛ قصر النيل وعبد الخالق ثروت وعدلي ومحمد فريد.

قبل أن تبدل طريقها بين المنيرة والوايلي، كانت قد سئمت المسافة من دار العلوم بالمنيرة حتى المناصرة، لا تلتفت، ولا يجذب انتباهها شيء، حتى مضايقات الطريق لا توقفها، كأنها مدفوعة بقوة، تمضي بها إلى الكلية، وتعيدها.

تمضي من محمد علي إلى ميدان السيدة زينب، تميل إلى خيرت والمبتديان حتى مبنى دار العلوم.

المسافة قريبة من المناصرة إلى شوارع وسط البلد. تخترق شارع محمد علي إلى أوله، المئات يجتازون ميدان العتبة. يمضون في تقاطعات الشوارع: الجيش، الأزهر، الموسكي، عبد العزيز، ومنها إلى الدروب والعطوف الملتفة، الملتوية، الشاحبة الضوء.

تجتاز الميدان، تدور حول الحديقة الصغيرة إلى الناحية اليسرى. تبطئ خطواتها، أو تتوقف تمامًا، عند باعة الكتب في المتبقي من سور الأزبكية، تكتفي بالفرجة، أو بتقليب الصفحات. في أحيان قليلة، تشتري كتابًا تجد فيه ما قد يهمها، تميل في اليسار ناحية ميدان الأوبرا، تطالعها نواصي الشوارع قبالة تمثال إبراهيم باشا فوق الجواد، يشير بإصبعه إلى حيث لا اتجاه، هل هو يتوعد؟ أو يفسح الطريق؟ أو يشير إلى هدف؟

المسافة ما بين العتبة وميدان الأوبرا، المسافة ما بين الحياة في الشوارع المحيطة بمحمد علي، والحياة في عبد الخالق ثروت وعدلي وقصر النيل، اختلاف الواجهات في هذه الشوارع يغريها بحبها، الشبابيك العالية والزخارف والمقرنصات، والهدوء في مداخل البيوت.

تتجه إلى شارع عدلي، البنايات على جانبَي الشارع الضيق نسبيًّا تتداخل ظلالها فتضفي عليه — معظم أوقات النهار — ضبابية باهتة، تسير في الاتجاه الموازي لحركة الطريق، البنوك والمعبد اليهودي والمكتبات والمطاعم ومحال الحقائب والقطع الأثرية والممر الواصل إلى شارع فؤاد.

وهي تشير بامتداد ذراعيها إلى ما حولها: لو أني أمتلك واحدًا من هذه البنوك، لن أكون في حاجة إلى عمل!

تميل إلى اليمين في شارع شريف، أو إلى اليسار في نهاية التقاطعات بشارع طلعت حرب، ثم إلى الميدان. ربما واصلت السير إلى قصر النيل والشواربي وجواد حسني وشامبليون وعماد الدين. لا تختار طريقًا محددًا، مجرد أن تتنفس القاهرة. ربما أخذت تاكسي إلى الوايلي، تستعيد أيام إقامتها في بيت خالتها حسنة.

لم يعد من مسقط في ذهنها سوى صور بلا قسمات ولا ملامح واضحة، يصعب أن تلتقط الذاكرة ومضاتها المتلاحقة.

قالت المُدرِّسة العمانية طيبة: أحب مسقط القديمة، البنايات الحديثة في كل مدن الدنيا.

صحبها عطية إلى المهندسين والزمالك والدقي. ركِبَا المترو إلى مصر الجديدة، هتفت أمها بالذهول لأثمان الشقق: لم نكن نعرف هذا ... كنا نفاضل ونختار أنسب المواقع.

ولوت شفتها السفلى: على أيامكم عرفنا الخلو والتمليك!

قاومت شعورًا بأنها لا تريد بيتًا في أي حي، هي تريد بيتًا في المناصرة، أو بالقرب منها، الحياة التي اعتادتها فلا تتصور حياة غيرها.

أذهلتها السرعة التي تغيرت بها كل الأشياء، البشر والبنايات والميادين والشوارع الجديدة. في مرات قدومها السابقة إلى المناصرة، كان معظم بقائها في البيت، لا تغادره إلا إلى مشاوير آخرها شارع محمد علي أو شارع الأزهر أو ميدان العتبة.

لم تَعُد تخرج في مشاوير صغيرة وتعود، هي تمتلك القدرة على السير مسافات طويلة، تخترق الشوارع والميادين بلا تصوُّر مسبق، تتأمل المارة والبنايات وواجهات المحال، عرفت الأسماء والملامح، حتى ما يبتعد عن الطرق التي اعتادت السير فيها أثناء الكلية. تنطلق عبر

شوارع وسط البلد. تمضي إلى الغورية والمغربلين والسكة الجديدة وباب النصر والفحامين، حتى الأزهر. قد تصعد إلى القلعة وسوق السلاح والمحجر وميدان السيدة عائشة.

قالت في لهجة مطمئنة: المواصلات تقرب البعيد.

وضح قلقه في التماع عينيه: والزحام؟

لاحظت في أبيها كثرة نسيانه، وميله إلى الشرود. تعتريه نوبات نوم مفاجئة، ربما سقط ذقنه على صدره في إغفاءة تعزله عما حوله، يتنبه، يتلفت حوله كمن يتعرف إلى المكان. تذكر جلسته في ركن الصالة، يحتضن العود، يجري عليه بنغمات خافتة، ويدندن. له آلتان، من الأبنوس، ومن الساج الهندي.

لكي ينزل من البيت، رضي حسين عكاشة الجلوس في ورشة زنكوغراف الاعتماد بشارع محمد علي، عيناه وحدهما تراقبان الحركة — من موضعه داخل حجرة المكتب الزجاجية — في المدخل الذي يحتل مساحة صالة متوسطة الحجم. والورشة الصغيرة في الداخل.

تنبه إلى قلة المترددين، عرف أن حرفة الزنكوغراف — مثل العوالم — راحت عليها.

خافت أن يكون النسيان نذير تحلل الذاكرة، يفقد أبوها ما كان يعتز — وتعتز — به من ذاكرة تحرص على الاستعادة والحكي.

يظل في حجرته وحيدًا، لا يخالط، ولا يسأل، أو يجيب عن أسئلة، ويلزم الانطواء. إذا حاولت أمها مجالسته، تشاغل بالفرجة على التليفزيون، تسأله، أو تبدي رأيًا، فيكتفي بالغمغمة، ويصمت.

شعر أن تكرار اعتذارها عن المضاجعة بحجة التعب إهانة لا يستطيع قبولها، أومأ بأن يستقل كلٌّ منهما في نومه. لزم حجرته، واكتفت بالتنقل بين غرفة المسافرين والصالة.

أحس بفوات العمر، هو الآن يقف في الشيخوخة. خامره شعور أنه حين تبدأ الحياة في التلاشي، تبدأ الرغبة الجنسية في التلاشي. لم يَعُد للجنس موضع في علاقتهما، اقتصرت على الصداقة والرفقة واستدعاء الذكريات، يختلفان كثيرًا، وإن لم يتصور أحدهما حياته دون الآخر.

قال في نبرة تسليم: لما تزوجت أمك كنا في سن متقاربة ... بلغنا الشيخوخة معًا.

هو يصغر عم مرهون بسنين كثيرة، الفرق عكسته خطوط التجاعيد المتعرجة في وجه العجوز، وبطء حركته، وصوته الشاحب. اجتذبتها ذاكرة عم مرهون الواعية، لا تفلت التواريخ ولا التفصيلات الصغيرة، ولا ملامح الأشخاص، يسند ظهره إلى الكرسي

الذي صنعه بنفسه، صناديق خشبية قطعها إلى أجزاء، ووصلها، يشبك يديه خلف رأسه، ويشرد فيما لا تتبينه هي ولا المدرسات الجالسات في نصف دائرة أمامه، ينثر قطعًا من فسيفساء غير مكتملة، تصل المخيلة ما أسقطته الحكاية.

يتحدث عن أم علي، زوجته التي اصطحبها إلى مسقط، وإن ندر اصطحابه لها — متلفعة — إلى نِزوَى، حيث يقيم أبناؤه الستة وأحفاده، ويتحدث عن الحكايات القديمة وحكايات السحر والنخيل وأشجار الليمون والأفلاج والقلاع، وعن زيارات السلطان إلى مدن الداخل، وكيف تبدلت الحياة.

هل الشوق تبادلي؟

هل تسافر إلى مسقط لتحن إلى القاهرة، مثلما نحن الآن إلى مسقط؟

أزمعت أن تصبح الشقة جميلة بما يعوض عدم انتقالها إلى حي آخر، الديكورات والأثاث وما اشترته في مسقط من التحف والسجاد والنجف والأجهزة الكهربائية.

اختارت ألوان الستائر والسجاجيد (عادت من مسقط بسجادة شيرازي) وألوان حجرات البيت.

شغلت أيامها بالتردد على شوارع وسط البلد، ومراقبة أعمال السباكة والدهان والكهرباء، وترتيب الأثاث، وتركيب الأجهزة الإلكترونية. تختصر الطريق من سكة المناصرة إلى شارع الأزهر، تخلف وراءها شبابيك جامع السبع بنات المغلقة، تميل من تقاطع الشارع إلى سوق حمام التلات، قصرت ما اشترته على الأطقم الصيني والأدوات المنزلية.

ترددت على خيَّاطة بشارع عبد الخالق ثروت، هزت كتفَيها لنصيحة أمها أن تلجأ إلى خالتها أم عطية في تفصيل ما حملته من أقمشة: اقتصرت خالتي على بِدَل الرقص، من الصعب أن تُبدِّل ما اعتادته.

تحدثت عن الأثاث من دمياط — لم تُشِر إلى ورش المناصرة — والسيارة، والرصيد في البنك. هذا مستقبل، يجب أن يقوم على أساس.

رفضت عرض أمها أن تشتري الأثاث من المناصرة، ورشها معارض للأثاث الدمياطي. تصفحت كتالوجات بالفرنسية والإنجليزية، تنتقي من الصور ما تطلب تصنيعه من الأثاث: لماذا لا أشتري ما أريده من دمياط؟

قال الأب: ورش النجارة في دمياط تغلق أبوابها.

وأطلت من عينيه نظرة أسًى: تعجز عن مواجهة الواردات الصينية.

قالت الأم: لا أحب الأثاث جاهزًا، أفضِّل المصنعية.

قال الأب في نفاد حيلة: احذري الموبيليا الصيني ... من برة هالله هالله، من جوة يعلم الله!

– الأثاث التركي قضى على الصيني ... لكن المصنعية أفضل.

أطلق تنهيدة: سبق العوالم إلى محمد علي قدوم محال بيع الآلات الموسيقية، والمطابع والزنكوغراف لطباعة دعوات الأفراح، والقهاوي لقعدات الفنانين والتعاقد على السهرات.

استطرد وهو يومئ ناحية النافذة: ثم جاءت ورش الأثاث لاستكمال الأفراح.

وخالط صوته حزن: تلاشى زمن العوالم في التسجيلات الغنائية والـ «دي جي».

قالت هالة: أعرف أن محمد علي كان شارعًا لثقافة العقل، ثم ضم إليها ثقافة القلب. السيادة الآن لورش الموبيليا.

قالت الأم: تجديد الموبيليا أفضل من شراء الصيني والتركي والماليزي!

رافقت عطية إلى سوق التلات وشوارع وسط البلد، تقضي يومها ما بين اختيار ألوان الستائر والسجاجيد والغرف، وزيارة الخياطة.

قال عطية: أحب الألوان المصرية ...

استطرد لسؤال الدهشة في عينيها: أهمها الأخضر في الريف ... والأصفر في الصحراء ...

أردف بصوت هامس: واللوزي في عينيك.

قالت شوقية سالم: كل شيء تمام، لا ينقص إلا العريس!

أضافت في لهجة واثقة: لو زرت جامع البنات، فستضمنين ابن الحلال.

أخذتها الملاحظة من شرود الذهن، في ميدان العتبة، وسكة المناصرة، والطريق الصاعد إلى الدراسة، وشارع محمد علي، وحديقة الأزبكية، وباعة الكتب، وميدان الأوبرا، والجلوس فوق السطح، وتعالى الأذان من جامع الأزهر، وتمثال إبراهيم باشا، وعزف الآلات الموسيقية المترامي من النوافذ المفتوحة، ودقات المسامير في درب الطاحون، وجلسات القراءة في دار الكتب بباب الخلق.

لم تتصور أن الأردنية ميسون النداف تسافر — أول نهار الجمعة — إلى مدينة العين طلبًا للشفاء. ولي الله كعب الأحبار في طرف المدينة، عادت إلى البيت — آخر النهار — متعبة، روت عن نسوة كثيرات على باب الولي وحول ضريحه، يلتمسن فرج الإنجاب، ويُقدِّمن النذور.

تبدأ الكلام، يأخذها الاستطراد فلا تتوقف، ربما كررت المعنى بكلمات مغايرة. تجيد تقليد الآخرين، طريقة الكلام والتصرفات. لديها دائمًا مجموعة من الحكايات المسلية.

داخل هالة — ليلة العيد — حنين إلى أغنية أم كلثوم، واللمبات الملونة، وتكبيرات الجوامع، والسهر حتى الصباح في الشوارع المحيطة بالمناصرة، إلى ما بعد ميدان الحسين، وغناء الأولاد: بكرة العيد ونعيد، وندبحك يا شيخ سيد. تزداد حركة بيع الآلات الموسيقية في شارع محمد علي، ويضيق مقهى التجارة بأصحاب الأفراح والموسيقيين والمغنين والمقدم والمؤجل، وعزف الآلات وضربات القشاط.

رمقتها بنظرة غاضبةً: مَن تَكلَّم عن ابن الحلال؟

– كل بنت مصيرها الزواج.

– لا أحب هذا المصير، أنا راضية بحالي!

وزوت ما بين حاجبيها: لماذا لا تعرضين الزواج على صفاء؟

– الكبرى قبل الصغرى.

وهي تشير إلى نفسها: هل شكوت لأحد؟!

وشردت بعينين مغمضتين: الزواج آخر ما أفكر فيه!

– أتصور أحيانًا أنك ترفضين رأيي لأنه صدر عني.

تعمدت أن تكون لهجتها قاسية: ما أريده أن أكون نفسي، أرفض الوصاية من أحد.

أرهقتها عروض أمها بالزواج. يثيرها الكلام عن جهاز هالة، اقتراب موعدها مع الستر وتجهيز البيت.

هل الزواج مصير الأبناء، حتى لو رفضوا الفكرة؟

تظل مستلقية في السرير، تحدق في تكوينات النشع على السقف والجدران، تنصت إلى ترامي الأصوات المتصاعدة من الطريق، تعيد قراءة مجلة، تزفر: أف، تخرج إلى الصالة، أمها في جلستها التي لا تتبدل على الكنبة، تلمح تهيؤها للكلام، تعود إلى الداخل قبل أن تنفرج شفتا الأم.

صارت صفاء كثيرة النزول من البيت، تتذرع بالذهاب إلى الموسكي وسوق التلات لشراء احتياجاتها، غاب النزول لمحمد علي بانتهاء الدراسة، لم تعد تشتري الأقلام والكراريس والأدوات المدرسية، تمضي إلى ميدان الحسين، ترتجف شفتاها بابتسامة حزينة وهي تعبر جامع البنات، هل تنفذ نصيحة أمها: تنتظر — عند بدء الصلاة — في مؤخرة الصفوف، عند السجدة الأولى، تتسلل في المسافة الضيقة بين الجدار والمصلين، حتى الصف الأول، يتيسر لها الزواج بإذن الله.

الدكان الزجاجي يطل على الميدان، أرففُه ممتلئة بالعطور والعود وسيديهات القراء والوعاظ والإنشاد الديني.

هشت حسنة ذبابة ضايقها طنينها: لا شأن لهالة بوساخاتكم!

ثم وهي تضغط على الكلمات: كلموها عن مواصفات العريس الذي تطلبه.

اتهمت خالتها أم عطية الرقاقة شفاعات بأنها تتعمد إجهاد زوجها بما لا يقوى عليه قلبه المتعب، تثق أن الله جعل الشهوة في المرأة لإرضاء الرجل، ولأذيته إن أساء معاملتها. هي قوة سلحها بها الله لاجتذاب الرجل، أو لإنهاكه، فلا يجد نفسه.

قالت أم عطية: هل سيقوى على الاستمتاع بها؟!

قالت حسنة: لهذا توجد الصيدليات ودكاكين العطارة.

وتنهدت: حتى لو ضعفت قدرته، لا بد أن يجد ما يُرضي زوجته.

قالت الرقاقة شفاعات كأنها تستكمل نقاشًا: أريد الطلاق!

قالت أم عطية: الخلافات لها حل، الانفصال يزيد الخلافات ولا يحلها.

وهزت إصبعها: حل المشكلة بمواجهتها وليس بالفرار منها!

قالت شفاعات: للعلاقة بين الرجل وزوجته وضعها الطبيعي.

قالت أم عطية مهونة: من حق الرجل أن يستمتع بما يمتلك!

شكت إيقاظه لها في عز النوم، يصر على مضاجعتها. يدعوها إلى ارتداء بيجامته، قبل أن تصعد إلى جانبه على السرير، لا تنزعها وقت المضاجعة.

لم تتصور أن تحتل أحاديث الجنس تلك المساحة في بيت المدرسات. العراقية سعدية تكثر — أثناء القعاد أمام التليفزيون — من الاستئذان للتوجه إلى دورة المياه، همست — وهي تعاني ارتباكًا — أن كلمات الأفلام تثيرها، تغلق عليها دورة المياه لتهدأ.

الحنين، والعلاقات السوية والشاذة، وأفلام الفيديو، والقنوات الفضائية، والوصفات، والحقن المقوية، يطيل بها الرجال وقت الصحو في السرير، خيرية أبو الرضا، المدرِّسة بمدرسة شمساء، تتداخل في كلامها تعبيرات ذات إيحاءات جنسية، تروي — وهي تداري ابتسامة — حكاية امرأة قتلت زوجها بعد عودته من الخليج، ساعدها ابن عمها الذي نشأت بينها وبينه — في غياب الزوج — علاقة جسدية، أراد أن تستمر. تحدثت — في ابتسامتها — عن مدرِّسة طلب منها زوجها فرصة عمل في مسقط، ثم ألغى الطلب، أقام علاقة مع أخرى، سميت ثريا كونتيننتال لأنها لا تبدل تصرفها الوحيد؛ تجلس في القاعة الدائرية بفندق مسقط إنتركونتيننتال. النظرة التي تبادلها نظرة مماثلة. تبادل نظرات الخليجيين والأجانب، المصري يدفع عشرة ريالات تهلكني من أول الليل حتى الصبح.

صاروا جزءًا من حياتها، وإن كانت على ثقة أن الصلة ستنتهي عند عودتها إلى القاهرة، تطول الأحاديث عن الرسائل، والمكالمات، والأحوال الشخصية، هي علاقات أشبه بما يحدث في أماكن المصادفة، يأخذنا الكلام، تبين الصداقة عن ملامح واضحة، تضغط الأيدي، وتتكرر الإيماءات بأن ما نعيشه تواصل صداقة دائمة، لكن البعد عن المكان يمتص الوعود.

توافد الجيران إلى الشقة، من عرفوا بعودتها إلى القاهرة.

خالتها أم عطية تصمم بدل الرقص في بيت درب الدقاق، وتحمل تاريخ المناصرة في داخلها، زمن العوالم القديم، نظلة العدل راقصة الشمعدان، ونبوية مصطفى بأدائها المثير، وعبد العزيز محمود وشفيق جلال ومحمد رشدي وسمير سرور وشكوكو ومحمد العزبي وحسن أبو السعود. التقت — في حوش زوبة — نجيب السلحدار ويوسف كوهين وأحمد عدوية وصلاح عطية وسيد حنكش وكتكوت الأمير وضابط الإيقاع محمود حمودة.

استأجرت شقة في درب طاحون بالمناصرة، تجمع فيها بين الإقامة والعمل، جاوزتها عوالم المناصرة إلى الأحياء البعيدة. صممت بدل رقص لتحية كاريوكا ونبوية مصطفى وسامية جمال وزينات علوي وهدى شمس الدين وكيتي. لم تعد البدل تقتصر على التصميمات التقليدية، ابتكرت ما يحرض الراقصة على الإجادة، وعلى إبراز مفاتن جسدها، تعهد إلى متخصصة بتزيين البدلة بالترتر وخرج النجف والخرز. رفضت أن تفصِّل بدلة من قماش الاستريتش.

التقت محفوظ سيد أحمد في ظل شاحنة هائلة، على ناصية تقاطع محمد علي وأرض شريف.

اكتفت بنظرة تساؤل.

كانت الشمس تتوسط السماء، الضوء ينكسر على زجاج النوافذ، الصهد يتصاعد من أسفلت الطريق، تمازُج الحر والرطوبة يجعل الجو خانقًا.

– أمس كانت آخر علاقتي بشركة الحديد والصلب، خرجت بمعاش مبكر.

واغتصب ابتسامة: أزمعت النزول في مولد الموبيليا، وتحويل الطابق الأول في البيت إلى معرض.

– تصر على مهنة بائرة؟!

هذه مهنة العائلة.

– لكل وقت أذان.

أشار بإصبعه إلى رأسه، دلالة أنه يفكر: السوق تطلب الأكثر متانة والأقل سعرًا.

ألقى بالسيجارة من يده على الأرض، سحقها بحذائه، وأضاف: الأكثر متانة يصنعه أسطوات المناصرة، والأقل سعرًا خسارة في المدى القريب!

# ٦

حين نطق اسمها للمرة الأولى، لم تسمعه. كانت قد أودعت نظراتها اهتمامًا بكل ما يحيط بها، الاستعادة والتأمل والدهشة.

استغرقت فيما حولها تمامًا. لاحظ انشغال نظراتها، فأعاد النداء: هالة!

عاود نداءه، لكنها واصلت السير دون أن تلتفت ناحيته، أو تتوقف، كأنها لم تسمعه.

ساعات الليل المتقدم أنسب الأوقات للجلوس على قهوة التجارة، يحتسي النرجيلة دون أن يعاكسه الأولاد.

تعرفه، لا بد — كما يدل نداؤه — أنه يعرفها، لكنها لزمت الحذر للصباح الباكر، وللروايات المتعددة عن غياب التوقع في تصرفاته. خشيت أن يتكلم بما يحرجها، أو يسيء إليها. قالت أمها من بين ضحكة ممطوطة: إنه أراد تهديد شاب عاكسه، فأخرج له قضيبه. ماذا تفعل لو أنه أقدم على ما لا تتوقعه؟

ظهرت الدهشة على ملامحها لقول أبيها وهو يقدم الرجل: عم أحمد تاريخ، الزوج السابق للفنانة هدى شمس الدين.

بدَا على العجوز اطمئنان للصفة التي قدمه بها أبوها.

هل كانت تلك مهنته؟ وماذا يعمل الآن؟

التفتت — كالمستغيثة — إلى الجرسون هلال. كان يرش الأرضية بالماء، ثم بنشارة الخشب.

شغلت وجه هلال ابتسامة واسعة. قال وهو يمسح الطاولات بفوطة صفراء، مبللة: هذا عمك أحمد تاريخ، هل نسيته؟

عاودت النظر ناحيته بإيماءة تذكر، وواصلت السير.

كان دائم التردد على بيت درب الدقاق. يروي ما يجذب انتباهها. يعتز أنه يعرف كل شيء في محمد علي والمنطقة المحيطة، يحفظ واجهات البيوت ولافتات الدكاكين والقهاوي والفاترينات، أنشأ صداقات مع باعة الأدوات الموسيقية في طول الشارع، عم عبد النعيم صانع السرادقات بالخيامية، فكري السروجي أول محمد علي، الحارس الليلي لدار الكتب، الشيخ ياقوت خادم مسجد سيدي منصور، بائع الصحف في ميدان العتبة، الأسطى أحلاهم العالمة منذ انتقالها إلى البيت الحالي في بناية حيفا بأرض شريف. حتى باعة الأرصفة بينه وبينهم صداقة، أو معرفة.

حين أمر الخديوي إسماعيل بشق شارع محمد علي، فلأنه كان يريد وصل القلعة بوسط البلد، وبقصر عابدين وحديقة الأزبكية أيام عزها، لم يضع في باله أن يقتصر الشارع — أو يكاد — على الفرق الموسيقية والعوالم ودكاكين بيع آلات الموسيقى.

تعددت المحال الشهيرة لبيع الآلات الموسيقية: محمد الحفناوي الكبير، أحمد محمود وحسن الحفناوي، محل آلة العود، بابازيان، عزيز بولس، حنا جرجس. يعتز بأن الشارع آخر قلاع الآلات الموسيقية الشرقية؛ العود، الكمان، القانون، الأكسيلفون، الرق، الطبلة، وغيرها.

المصادفة وحدها — في روايته — هي التي أتاحت الاستقرار للعوالم في شارع محمد علي. لاحظت الحكومة ظاهرة انتشار رقصة البطن في الشارع والشوارع المحيطة، أصدرت قرارًا بمنعها، رفعت الراقصات دعوى ضد الحكومة. صدر الحكم بعدم اعتبار رقص البطن من المخالفات، استقرت فرق العوالم — من يومها — دون أن يتعرض لها أحد.

تتلمذ على أيدي الكثيرين، حتى مَن لم يُعاصرهم، وإن لم يَعُد يذكر سوى أسماء سلامة سيد درويش وعبد الحي حلمي ويوسف المنيلاوي ومحمد سالم العجوز ومحمد السبع وعبد الباري، تعلم سيم العوالم ... فرح = رفح. المرأة = كوديانة. الرجل = برغل. نقود = أُبَيِّج. جنيه = سهلي ...

اعتاد التنقل مع فرق العوالم من مناسبة إلى أخرى. ربما كانت المناسبة عقد قران، ليلة حنة، حفل زفاف، ختان، إنجاب بعد طول عقم، عودة من الحج، خروج من السجن.

أشد ما يعتز به سماعه لأم كلثوم، المطربة ذات البالطو والكوفية والعقال، وهي تغني ألحانًا معظمها ديني: كانت تغني بين الفقرات، لم أتصوَّر يومًا تحيي فيه السهرة كلها.

ثُم وهو يُخفي انفعاله بابتسامة شاحبة: لو أن الأسيوطية سنية حسنين اهتمت بفنها لغلبت أم كلثوم.

عمل في فرق المهدية واللاوندية والحاجة السويسية وبهية وتوحيدة ونعيمة، راقصات محمد علي والمناصرة رقصن على إيقاع طبلته، يجيد ملاحقة أداء الراقصة، اتساقه مع اللحن، يهتز صدرها وذراعيها وصدرها وخصرها وردفيها. جلس إلى المطرب القديم محمد سالم في قهوة الآلاتية [التجارة] بشارع محمد علي، وجد فيه أجمل الأصوات بين قدامى المطربين، أثقلته الشيخوخة في آخر أيامه، فهو لا يكاد يترك مقعده، إذا أراد القيام، أو الانصراف، فإنه يتكئ على كتف مَن يصحبه إلى البيت. كازينو «نزهة النفوس» في وجه البركة، كانت تغني فيه منيرة المهدية، وكانت اللاوندية تغني في وجه البركة، وغنت نعيمة شخلع أيام نفي سعد زغلول: يا بلح يا زغلول.

لاحق فرقة الموسيقى الملكية وهي تخترق شوارع عابدين، ثم تعود إلى مبنى الحرس الملكي المطل على الميدان، ربما تردد يومَي الجمعة والأحد على كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية، لسماع فرقة موسيقى الشرطة في ألحان شرقية وغربية، تردد على مسرح دار الأوبرا، وصالة سانتي، ومسرح كشكش بك، ومسرح على الكسار بعماد الدين، ومسارح روض الفرج، زمن الفن الحقيقي.

عاصر اختفاء أغنيات ليلة الحنة، وليلة الفرح، والليالي الملاح التي تسبق الليلتَين. عرف الطريق إلى المقاهي، والكازينوهات، والمسارح، وصالات الغناء والرقص. تردد على مسارح برنتانيا والكورسال والرينسانس والإجبسيانا وأبي دي روز والبيجو بالاس، وملاهي الدرادو وكواكب الشرق ونزهة النفوس وألف ليلة وليلة، صفق لسيد درويش ومحمد تيمور في «العشرة الطيبة»، شاهد كشكش بيه وراسبوتين وأوبريت حورية هانم، وأوبريتات منيرة المهدية «الغندورة» و«قمر الزمان». جلس على مقهى المتروبول إلى نجيب الريحاني واستيفان روستي وأحمد علام، جالس — على مقهى الفيشاوي — أحمد الفار وكامل المصري وأحمد شفاتيرو والسيد قشطة، وغيرهم من نجوم الفكاهة القدامى، شاهد في سينما أولمبيا أفلام شارلي شابلن الصامتة والإخوة ماركس ورعاة البقر.

قدم نفسه إلى الإذاعة المصرية عند افتتاحها، تفحصه أعضاء لجنة الاختبار بنظرة رافضة. فسَّر الأمر بإهمال ثيابه: هل كنت سأغني في السينما أو في الإذاعة؟!

طالبه المعلم حسان في قهوة التجارة، أن يغني لسيد درويش. علا صوته — دون موسيقى — بأغنيات استعادها الحضور. حين أعطاه المعلم جنيهًا، لم يعتذر، وإن أزمع أن يظل الغناء شأنه الشخصي.

حاول أن يوجه خطوات إسماعيل يس عند قدومه إلى شارع محمد علي، غنى مونولوجات في المقاهي والكازينوهات القريبة، ثم سافر إلى الإسكندرية، وعاد إلى القاهرة، لينطلق منها إلى دمشق واللاذقية وحلب، ويتفوق على شكوكو بتعريفة.

مطربو ومطربات هذه الأيام — في رأيه — لا يستحقون هذه الصفة. المطرب من يطرب، صوته الجميل القوى لا يحتاج إلى ميكروفون، إنما يحتاج إلى أذن تحسن السماع والتذوق. هو يغني في الخلاء، وفي السرادقات المكشوفة.

حضر — بالمشاركة، أو بمجرد الحضور — حفلات أسما الكمسارية وأختها آسيا، والحاجة السيويسية، ونزهة، واللاوندية. يعتز بأنه كان تحت قدمي المعلمة شوقية سالم حين أدت رقصتها الأخيرة بالشمعدان، قبل أن تعتزل.

– لم يعد الرقص مجرد هز بطن ... الرقص الحقيقي له أصول!

وهز قبضته في تأكيد: الجلابية تساوي بدلة الرقص العارية إن أجادت الراقصة أداءها! شاهد شفيقة القبطية وهي تؤدي رقصة الشمعدان في ملهى ألف ليلة: كانت فنانة صح ... لكن الكوكايين قتلها.

عاصر في كازينو بديعة مصابني أربع راقصات: حكمت فهمي وببا عز الدين وسامية جمال وتحية كاريوكا.

ضرب ركبته بكفه، وأضاف: كان للراقصات دور في لعبة السياسة.

قبل أن تميل ناحية شارع عبد العزيز، لمحته يتناول قطعة حجر، تظاهر باعتزامه إلقائها على أولاد يعاكسونه. جروا. ألقى بها جانب الطريق!

# ٧

سبقها إلى شارع محمد علي. خلف وراءه جامع منصور. دفعه اكتظاظ البضاعة خارج الدكاكين، وعربات الخضر والفاكهة، والأجولة والأقفاص وبقايا الطعام، إلى النزول للرصيف. لزم الجانب الأيمن حتى الممر الصغير، المفضي إلى شارع العطار، حتى مع شارع الأزهر. اخترق المساحة الصغيرة إلى داخل بناية السوق. أبطأت خطواته بين الأجولة والأقفاص وطاولات السمك والذبائح المعلقة والظلمة الشفيفة.

تلفت بعفوية وراءه، مال — من اليسار — إلى شارع الأزهر. ظلت خطواته على بطئها.

اعتادت الوقوف على ناصية شارع بورسعيد، أو أمام جامع البنات، تومئ إليه بنظرة متواطئة، وتواصل السير، فيلحق بها. يعرف أنه إذا رأتهما عين من المناصرة فلن يلتقيا، لن يؤذن لها بأن تخرج إلى العمل، أو تترك البيت لأي سبب.

يتجاوران في السير، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، أو يبادله الكلام، كأنهما يمضيان في تيار المارة، جزء من حركة الطريق، منفردان، لا تجمعهما صلة، يسيران باندفاع الزحام، يتواجهان بالنظرات في الأماكن التي تنشغل فيها الأعين، أماكن لا تثير ريبة ولا شكًّا: زحام شارع الغوري، خان الخليلي، مولد الحسين، الشوارع الضيقة لسوق حمام التلات، يتكلمان دون أن يلتفت أحدهما إلى الآخر، يتفقان على مكان لقائهما، وموعده.

ربما تهيَّآ للقاء عند اقترابهما من الشارع الجانبي، الموصل إلى الجامع الأزهر، الوكالات مغلقة، وحركة السير ساكنة، يبادر بسعلة خفيفة، تتوقف خطواتهما، يميلان ناحية جدار البناية المصمت.

ماذا لو أن أحدًا من المناصرة شاهدهما في شوارع الحي، أو في الشوارع البعيدة؟ كيف تتغلب على ارتباكها؟ بماذا تبرر سيرهما — خفية — عن الأعين الفضولية، والمتسائلة؟

بعد أن خلفا الميدان الصغير وراءهما، مالت بجانب رأسها لتواجهه. أهملت ارتباكه البادي، لتكتم الارتباك في داخلها. يتلفت حوله، كأنه يطمئن إلى غياب من يراهما.

غالبت الخوف حين تركت موضعها على باب جامع البنات. استعادت قول خالتها أم عطية: لذلك سُمِّي جامع البنات.

اخترقت — بنصيحة أمها — صفوف المصلين وقت السجود، ثم عادت. يشغلها الأمل أن ينصلح حالها، ويتقدم لها الشاب الذي تريده.

أعادت ما قالته أمها: الفارس الذي يطير بها على حصانه موجود في الحواديت وحدها، الرجل الحقيقي هو الذي امتلأ جيبه، إحساس الأمومة له وقت، قد يضيع ما لم يظل في وقته.

اعتادت الملاحظات المشفقة، أو التي تنطوي على معايرة، عن القطار الذي يجري، وبيت العدل، والعوض، وابن الناس الطيبين.

قالت هالة: لماذا قبلت الزواج مِن فاروق؟ ولماذا تكتمين علاقتكما؟

أغفلت تعدد رؤيتها لهما في الفحامين والأزهر والتربيعة والغورية والحمزاوي والصاغة والموسكي وبوابة المتولي. يسيران متجاورين، لا تنظر ناحيته، ولا تكلمه، تحرص أن تتأخر خطواتها عن خطواته.

هزت صفاء رأسها: الأسئلة!

وغلبها انفعال: لم يعُد لأمي سوى إلقاء الأسئلة، إن كنت أوقعت ابن الحلال؟!

واختنق صوتها: الزواج فرصتي للخروج من البيت.

أردفت للدهشة في عيني هالة: بدأ إحساس أمي بالزمن من قبل حصولي على الدبلوم. إذا تأخر زواج البنت فهو كارثة.

أرجعت اكتفاء صفاء بشهادة التجارة المتوسطة، إلى قول أمها إن البنت التي لا تستكمل دراستها، أولى بها البيت، هي تريد البيت، الزوج والأبناء. لم تناقش شوقية سالم اعتزام صفاء استكمال تعليمها الجامعي. قالت عند عودتها من آخر امتحان للتجارة المتوسطة: كفى!

فسَّرت شوقية سالم الكلمة بأنها إن لم تعمل بالشهادة، فستلزم البيت.

رفعت صفاء رأسها، وفي عينَيها ما يدل على أنها اتخذت قرارًا: فاروق وافق على أن أحتجب، كما وافق على أن أظل في العمل.

رسمت هالة ابتسامة سخرية: لماذا يعترض؟ ... الحجاب لتظلي حريمه وحده، والعمل لتشاركيه الإنفاق!

وهي تعد نفسها للسفر، فاجأتها صفاء في لهجة حيادية: سأحتجب.

رمقتها بعينين متسائلتين: ماذا تقصدين؟

– سأرتدي الحجاب.

– لماذا؟

– هل لا بد من سبب؟

نقرت رأسها: طقت في مخك؟!

– قرار اتخذته دون نصيحة، وسأنفذه دون نصيحة.

لماذا تبدل حالها؟

كانت أمها تخفي بدل الرقص عن نظرها، توبخها حين ترقص على نغمات تسمعها: عاجبك ما نعيشه من غُلب؟

هل ارتدت الحجاب قبل أن تتعرف إلى الشاب؟ أو أنه هو الذي نصحها بارتدائه؟

– مشكلة حجابك أنه سيغطي مخك!

– كنت تحبين يسري ... لماذا لم يتقدم لك؟

– أنفق على استكمال تعليمه من العمل في ورشة عبد السميع.

– هو الآن صحفي معروف.

– أيامها، هو مجرد صنايعي!

لجأت هالة إلى التعبير بيديها: وهو ... هل؟

وهي تخفض رأسها: لم يتزوج إلى الآن!

– هل أنهى تعليمه؟

– ورث الدكان من والده ... ترك الدراسة قبل الثانوية ليقف فيه.

وجرت على أنفها بعصبية: تجارته لا تحتاج إلى شهادة.

أهملت ملاحظة هالة أن مجموع درجات تخرجها في التجارة المتوسطة يتيح لها استكمال دراستها في كلية التجارة. اكتفت بالقول: تعلمت كفاية.

– هل اشترط عليك الإسدال؟

– لم يشترط أي شيء!

– وقعادك في البيت؟

– هذا إلزام الثانوية التجارية.

وحدجتها بنظرة مستاءة: أنت اخترت مستقبلك ... لماذا لا أختار مستقبلي؟

– تعتبرين حياة أهل الكهف مستقبلًا؟

وسرت في صوتها رنة تهكم: هل قبلت به لأنه يطلق لحيته؟

– فاروق متدين ومستقبله مضمون!

قلبت هالة شفتيها: بالبيع في كشك الحسين؟!

– الدين أحل التجارة.

أضافت بلهجة مَن تريد أن تنهي المناقشة: هو يرفض حياة العوالم.

– معايرة؟! نسي صاحبك أنه يعيش في حي العوالم.

– هل نحاسبه على سنوات لم يعشها؟!

ونفضت رأسها إلى الخلف، تزيح خصلة شعر من فوق عينَيها: أين العوالم؟ ومن يريد أيامهم؟!

ظلت صامتة، دون أن ترفع عينيها. أطلقت هالة أف طويلة: غسل الولد مخك وانتهى الأمر.

انتزعها صوت شوقية سالم من دوامة في رأسها: لماذا لا تعملين بالتدريس؟

لوحت يدها بالمفاجأة: لا أريد.

– لماذا؟

– الدخل الأعلى لن يتحقق في الحكومة.

وكست وجهها حدة: مرتب الوظيفة يضمن العيش بالكاد، أريد عملًا له إيراد حقيقي.

– أين هذا العمل؟

– لا يوجد.

قالت أمها: ما نابه من غربته إلا عوجة ضبته!

رمقت أمها بنظرة غاضبة، في جلستها على الكنبة، تدلي ساقًا وتطوي الثانية تحتها، تلتقط حبات السوداني من الطبق البلاستيك الصغير فوق الترابيزة. قد تنتزع بملقاط صغير شعيرات أسفل ذقنها.

كل ما حولها يدعوها لأن ترحل، إلى أين؟

بدا الزواج احتمالًا، وإن لم تجد من يغذي ذلك الاحتمال. شغلتها المذاكرة عن الاستجابة لإلحاح أمها، أو ملاحظة الإيماءات الداعية من شبان، المذاكرة أولًا.

قالت بصوت متراخٍ: سأنشئ لنفسي شركة.

لم تكن تعني ما قالت، مجرد الكلام الذي يصرف أمها عن الكلمات الموجعة.

قضت أعوامًا بين المذاكرة والتدريس والسفر. ماذا عن المستقبل؟ ما ملامحه، إن بدت له ملامح؟

خيرية أبو الرضا — زميلتها في بيت المدرِّسات — اشترت شقة واسعة في عباس العقاد، واعتزمت الحياة من عائد شهري لوديعة البنك.

تملكها اليأس من شراء قطعة أرض في المناصرة أو حولها، البيوت تسقط، تظل متجاورة، متساندة، متلاصقة، حتى يتهاوى أحدها فتشمل أوامر الإزالة بيتين أو ثلاثة مجاورة. يبني الورثة طابقا أرضيا تشغله ورش النجارة ومعارض الموبيليا، من أثمانها تبني الطوابق الفوقية.

لم تتصور أن ما ادخرته في سِنِي غربتها يأخذه التجار والسماسرة ومالكو العمارات، يتابعون ما ضيعت لادخاره أجمل سني حياتها، حين كتب موجه اللغة العربية — في دفتر تحضيرها — ملاحظات قاسية، تبعها بنصيحة أن تعني بعملها، داخلها شعور كالندم، لأنها تركت القاهرة.

قالت أم عطية: أنت عائدة من الخليج ... أنت إذن تملكين ثروة.

ونقرت على جبهتها: تأخرك في الزواج ينطوي على ذكاء.

وغمزت بعينها: الآن تفاضلين بين الباشا والباشا!

قالت هالة مستغربة: سافرت للعمل، وليس للحصول على عريس.

لم تتصور أنها تركب الطائرة بمفردها، تنطلق إلى بلد لم تره من قبل، تمارس أول وظيفة بعد التخرج.

تظاهرت بالنظر من النافذة المستديرة، الصغيرة، وإن انكمشت في نفسها، وشردت في رؤًى غير محددة.

قالت شوقية سالم: تعملين هناك، وتكسبين، وتحصلين هنا على الزوج المناسب.

ورنت إليها بنظرة متسائلة: ألم تجدي عريسًا مناسبًا في الخليج؟

ثم وهي تعد على أصابعها: أمير مهم؟ مالك آبار بترول؟ السلطان نفسه؟ ... جمالك في ذاته له قيمة!

لو كفت أمها عن الكلام، بدا ذهنها مشتتًا، ولا تحسن وصل الكلمات.

قالت من بين أسنانها: ذهبت لأعمل لا لأبحث عن عريس!

– إنها ثماني سنوات!

– أليس في بقك غير حديث الزواج؟!

طالت حيرتها بين عروض شركات توظيف الأموال وسماسرة البورصة ومقاولي الأراضي والعقارات.

قلبت في ذهنها بين العقارات والسياحة. رفضت العمل في تقسيم الأراضي، وبيع العمارات. عادت بمال يكفي مشروعًا، لكن العقارات تطلب ما لا تملكه. أهملت العمل في السياحة، ما تحفظه من مفردات الإنجليزية يصعب أن تُجري به حوارات في شركة زبائنها من الأجانب.

كل الاقتراحات اصطدمت بالمبلغ الذي أودعته البنك، لا بد أن تحصل على عائد، إلى جانب عائد المشروع؛ إنتاج دواجن، سيارة نقل صغيرة، تاكسي، قطع غيار سيارات، ميني ماركت، صناعة ملابس داخلية، مطعم، تبوير أرض زراعية، ثم بيعها بسعر أعلى.

حدثها حسين عكاشة عن الشركات التي لا تعرف البين بين، هي مضمونة الربح لارتفاع أرباحها، ولأنها مما لا يستغني عنها الناس؛ شركات المعاملات الإسلامية، المطاعم، المخابز، المدارس الخاصة، المستشفيات الخاصة، شركات النقل السياحي، شركات تقسيم الأراضي والإسكان.

قالت في حيرة: لم أعد بكنز علي بابا!

فكرت في أن تشتري ثلاث سيارات، تنقل الأثاث من المحال إلى البيوت، داخل القاهرة وخارجها. لم تكن قد فكت الوديعة التي ادخرتها من سِنِي عملها في السلطنة. اكتفت بالعائد الشهري، تنفق منه، تضرب الريال العماني أو الدولار في سعر التحويل، تبدو لها النقود المصرية كثيرة، فتتردد في تحويلها، الريالات العشرة التي قد تنفقها في يوم، يتسع إنفاقها لأيام طويلة، في القاهرة.

رفض حسين عكاشة عرضًا بأن تشارك في مصنع صغير للملابس الجاهزة، في العاشر من رمضان، أو ستة أكتوبر. يثق أن إنشاء الورش، أو مصانع الموبيليا الصغيرة، مما تضيق به طبيعة المرأة.

– صواب الرأي لا صلة له بما نملك من مال.

ووشى صوته بنبرة تحذير، أنها لم تشر إلى عودتها للمناصرة بما يعينها على مشروع تحسن اختياره.

قالت شوقية سالم: لو أن العوالم ظلوا كما كانوا ... هل كنت تخجلين؟

ورفعت صوتها لتدفعه للإنصات إليها: كان ماضيًا ... لماذا لا ننساه؟

تباطأت في سيرها أمام المكتبات في نهاية الشارع، تمتد أمامها البواكي المتهدمة، بلا طوابق تعلوها.

أشارت إلى بيت متهدم في جانب الشارع: ربما شاركت في شراء هذا العقار.

زوى عطية ما بين حاجبيه: تشترينه؟!

– سأبني «مول» مكانه.

أردفت للبسمة التي حاول كتمها: ماذا؟

– ذكرتني بإسماعيل يس عندما اشتري ميدان العتبة!

لامَها حسين عكاشة: هل تعرفين شيئًا عن التجارة؟ هل تعرفين الاستيراد والتصدير وأسعار العملات والودائع والتحويل والمكسب والخسارة والفاقد والمصاريف غير المنظورة؟

ورمقها بنظرة مؤنبة: أنت مدرِّسة، افتحي مدرسة خاصة!

ومضت الفكرة كحلم: لماذا لا تنشئ مكتبًا لتشغيل العمالة في الخليج؟

عرفت الكثير عن الكفيل وعقود العمل وقواعد السفر وتصريح العمل والتأمين والظروف التي يعيشها المصريون في دول الخليج.

دهشت لقول الجارة حياة النفوس إنها تفضل هجر الرقص، والبقاء في البيت.

هل نتوقف عن ممارسة الرقص فنلغيه؟

هل تشهد مهنة العوالم نهايتها في المناصرة؟

مثلما أن الفتاة البدوية تولد للرعي، فإن الفتاة في المناصرة كانت تولد للرقص والغناء وإحياء الأفراح. تبدلت الأحوال. اتجهت البنات إلى المدارس والجامعات، وإلى العمل خارج المناصرة، وخارج البلاد.

قال عطية: المناصرة أُولى ضحايا الانفتاح. بدأ الأغنياء الجدد في إقامة حفلاتهم داخل فنادق النجوم الخمسة.

لاحظت أنه تثاءب، دون أن يضع يده على فمه: راحت على العوالم والفرق النحاسية، البركة في شرائط الكاسيت!

نقل عطية ما قاله الشيخ علي متولي إمام جامع منصور في خطبة الجمعة: بيع الآلات الموسيقية حرام.

لحساب مَن يخطب الرجل؟ لماذا لم يتحدث عن الموسيقى والغناء والرقص؟ هل تناسى أن جامعه في حي العوالم؟

رفض عطية فكرة مكتب تشغيل العاملين في الخليج. هل يكفي أن يقيم المرء في الخليج بضع سنوات، ليتولى مسئولية تنظيم العلاقة بينه وبين من يتطلعون للعمل فيه.

– العمل الحر يعلق الدخل في الهواء.

ثم وهو يتفَرَّس وجهها: الوظيفة تضمن لك دخلًا.

ومط شفته في تصعب: لو أنك كنت في وظيفة قبل السفر ربما عدت إلى وظيفتك!

قالت: هذا صحيح، لم نكن نفكر في غير التدريس، نأخذ راتبًا جيدًا، وسكنًا مناسبًا، ووسيلة مواصلات مريحة.

علا صوته: هل سمعت عن فتاة، امرأة، مارست مثل هذا النشاط؟

في نبرة تشي باطمئنانها إلى صواب ما تفعله: كل شيء له بداية.

– ستكون بداية خاطئة، والفشل نهايتها.

وحدجها بنظرة مؤنبة: نصيحتي أن تتجهي إلى نشاط آخر.

فاجأها رأيه، فاجأتها الكلمات التي عبرت عن رأيه. تشعر في صحبته بالطمأنينة، تبوح بما يشغلها من أفكار وتصورات، يناقشها، ربما خالفها الرأي، تقتنع أو لا تقتنع، تتخذ قرارها من رأسها.

اقتحمها شعور بأنه يسخف ما اقتنعت به، ولا يناقشها، كمن اتخذ القرار، وعليها أن تُحسن الإصغاء، لم تتصور أنه يكلمها بهذه اللهجة الآمرة.

لم تلحظ، ولا جاء في باله، أنه يملي عليها ما يجب عمله، يضمر لها مشاعر تملي عليه كلماته، تطالعه المناصرة: شوارعها وبيوتها ودكاكينها، بما لم يكن رآه قبل أن تعود هالة، الناس والشوارع والأبواب والنوافذ والورش وروائح النشارة والبخور وتعالي الأذان من مئذنة سيدي منصور والكلمات الهامسة والضحكات.

قال أحمد تاريخ: الأسطى نعناعة تمتلك شقة حجرة وصالة في الطابق الثاني فوق زنكوغراف الترقي بشارع محمد علي.

وغلبت التقريرية على كلماته: حالتها سيئة، لكننا نستطيع تجديدها!

ما يؤلمها شعور الغربة بين السكان الجدد في المناصرة، يشغلون البيوت والدكاكين والمقاهي والشوارع المتقابلة، تغيب الملامح التي ألفتها والصداقات والمؤانسة.

اعتادت — في تنقلها بين غرف سكن المدرسات — أحاديث الغربة واللهفة والحنين الدائم إلى الأهل خارج السلطنة. لم يذهب بها التصور إلى أبعد من أنها ستجد مالًا في البلد الذي تسافر إليه، يتيح لها حياة غير التي تحياها.

تبينت — في لحظة — أنها وحيدة، في مدينة لا تعرفها، ولا تعرف ناسَها، وأن المناصرة بعيدة بما يصعب عليها تصوُّره. داخَلَتها مشاعر متباينة باليُتم والفقد والخوف، وتوقُّع ما لا تدرك طبيعته.

يشتد بها الحنين، تنادي على تاكسي من أمام بيت المدرسات، تمضي إلى السنترال في أرض المطار القديم.

تعاني قلق الانتظار. المناصرة كانت هناك، تبعدها بحار ومدن وصحارٍ وجبال وما لا تعرفه.

تكرر محاولات الاتصال حتى يترامى صوت أمها، أو صفاء، من بيت المناصرة، وصوت خالتها حسنة من بيت الوايلي، تضع سماعة التليفون — بعد دقائق المكالمة — وفي داخلها شعور أنها قد غادرت القاهرة حالًا يلفها الإحساس — وهي تهبط إلى الطريق — كأنها ما زالت في القاهرة، وأن الاتصال التليفوني أعاد العد إلى رقم الصفر، يتنامى الحنين في الأيام التالية، يتزايد حتى ترفع سماعة التليفون، وتدير رقم البيت في المناصرة، وفي الوايلي. تكرر التصرف على فترات متقاربة، قبل أن تُعِدَّ حقائبها لقضاء الإجازة في القاهرة.

لم يعُد يثيرها أن تتعرف إلى مَن لا تتذكره، من لا تعرف أنها التقت به مِن قبل، تُفاجأ بمن يعرفها. يضيف إلى نظرتها المتسائلة: أنا فلان ... حملتك بيدي وأنت طفلة.

عرفت الانتقال إلى الأماكن البعيدة داخل القاهرة. أجادت التعرف إلى الطريق من تقاطعات الشوارع، وواجهات البيوت، وأرقام الأوتوبيسات. يحركها ميل — تشعر به — إلى المغامرة.

لم تَعُد تلجأ إلى عطية، تسير بمفردها، أو تستقل الأوتوبيس، ربما نادت على تاكسي، يعلو صوتها — في ثقة — باسم المكان الذي تقصده، ما يشغلها أن تكون الشخصية التي تريدها، تفعل ما لا يفرضه عليها أحد. نحصل على النقود لنرفض الملاحظات والتوجيهات والأوامر.

– لا أريد الوظيفة، أفكر في مشروع صغير، أنفق عليه ... وعلى نفسي.

قال عطية: محل للأدوات الموسيقية.

– الدكاكين المماثلة أغلقت أبوابها.

– ينتظرون العوالم ... اقصري بضاعتك على ما يطلبه السياح، بدل رقص وأعواد وطبول للزينة.

هل العرض كي لا تبتعد عن المناصرة؟

وهي تميل من سكة المناصرة إلى درب الطاحون، شاهدت حركة أمام دكان خاطر الحانوتي. شكاير الأسمنت ورصات الطوب وقطع الرخام وبلوطات الخشب. وشت بما خمنت أنه عملية ترميم.

رد خاطر السلام، وقال لنظرة هالة المتسائلة: قلنا نشارك في المولد.

ثم وهو يضحك: الجميع تحولوا إلى باعة موبيليا ... نفعل مثلهم!

# ٨

رأته في وقفته خلف البنك، في الورشة. ثَمة رائحة نشارة الخشب، تطغى على ما عداها، البنوك الخشبية، لصق الجدران، السراق يقطع الألواح، تمتد إلى أرض الطريق، انشغل الأسطوات والصبيان بتشطيف الخشب بالفارة، تسوية أسطح الأثاث بالسنفرة، وتنعيمها، تحريك الغراء في الأوعية الحديدية، خرط أرجل الكراسي ومساندها، وصل أجزاء قطع الأثاث بالمسامير، واللصق، وثمة المبارد والمطارق والقواديم والمخارز ومتر القياس والمناشير والأزاميل.

آخر رؤيتها للأسطى حكيم، قبل أن تسافر. طرأ تبدُّل يصعب تحديده، لعله ما تسلل إلى ملامحه من تجاعيد، والشحوب في الوجه، والذبول في العينين، تخللت نشارة الخشب شعر رأسه، تناثرت على وجهه وملابسه، بدت بشرته أقرب إلى الصُّفرة.

فاجأها بالقول: هل عدت إلى الوظيفة؟

– أفكر في العمل الحر.

في دهشة: معرض موبيليا؟

– عمل لا يضايقني فيه الناس!

تأمل يدَيها: لك أظافر طويلة ... لماذا لا تخمشين بها من يحاول مضايقتك؟

التقط نظراتها تجول في الورشة: وحدك؟

ألقى بقايا السيجارة على الأرض، تأمل اشتعالها، ثم داسها بقدمه: قلَّ الزبائن، لم أعد في حاجة إلى صنايعية.

قال إن الموبيليا الجاهزة هي السبب في أزمة الصنايعية بالمناصرة. لم يعد الزبائن يقبلون على البضاعة الحاضرة. يستوردها التجار من دمياط، لا يشغلهم متانتها ولا ذوقها، يحرصون على السعر الأقل. غاب عن الحي آلاف النجارين والكرسجية والأويمجية والقشرجية والأسترجية والمذهباتية والمنجدين.

زوت ما بين حاجبيها: لماذا لا تتحول إلى تجارة الموبيليا؟

وشى صوته بسخرية: أفضِّل تجارة العملة.

صمت فجأة، كأنه تنبه إلى ثرثرته بما لا ينبغي قوله، استطرد لنظرتها المستغربة: ربحها يستحق هذا الخطر.

لم يكن يقبل في ورشته إلا ما يوافق ذوقه وموهبته، هو فنان، يرفض تسمية الأسطى أو الصنايعي، يرفض أن يُعطِي فنه إلا لأشغال محددة، يرفض ما يسميه عمليات الترقيع كإصلاح الكراسي والكنب البلدي والدواليب والصناديق، يصنع حجرات النوم والسفرة والأبواب والشبابيك. حتى خشب الخرط يجيد التعامل معه، يشكله على الهيئة التي يريدها، يعيب من يستخدم أشجار السنط والجميز والتوت، يستخدم — بكميات أقل — خشب الزان والسويدي والبياض، ربما استخدم أخشاب السنديان والصنوبر والأرو والساج، يرفض التعامل مع خشب الشجر أو الصناديق، هذا ما يحتاجه نجارو السواقي والطبالي والدكك.

يقتصر على الماهوجني، الورد، الزان، البلوط، الموسكي، الشقارة، الأبنوس، الأرو. كلها مستوردة وغالية الثمن. يتردد بين مغلق الخشب في بولاق، وماكينات الخرط في داخل المناصرة، وفي خان الخليلي، ربما أضاف إلى الأرو قشرة ورد، أو قشرة عين الكتكوت، يشرف بنفسه على عمليات تذهيب الأثاث، والتطعيم بالعاج والأبنوس، والزخرفة بالسدايب، الطاولات من الرخام الفينو، والمرايات بلجيكي.

يتقن صناعة منابر المساجد والأبواب والنوافذ والمشربيات، يشتري قطع الموبيليا المستعملة، يعيد إصلاحها وطلاءَها، يعرضها خلف الواجهة الزجاجية للدكان، يصنع الأطباق الخشبية المنقوشة، والأدوات المنزلية كالمغارف والأوعية.

– ورش كثيرة تستخدم السلوتكس.

أردف للتساؤل في عينيها: كرتون مضغوط تغطيه الفورمايكا.

استعاد نبرة السخرية: لعل الموبيليا الصيني هي الحل ... شكلها جميل، ورخيصة.

ثم وهو يحك ظهر يده: تجار المناصرة يعرفون الفارق بين المصري والصيني، المصري إن انكسر تعالجه، خشب حقيقي، أما الصيني فترميه في الزبالة، خشب مفروم.

ما يصنعه يختلف عن سلق المناصرة، كلها بضاعة للسوق، يرفض استخدام المسامير في الموبيليا، يقصرها على العاشق والمعشوق، ولصق الغراء. يستطيع تحويل أية قطعة خشب إلى تكوين جميل، تحفة تسُرُّ العين لرؤيتها، يبيع ما ينهيه لمعارض الأثاث في وسط البلد.

– عندما أغلقت قهوة النجارين على ناصية حارة العوالم أبوابها، عرفت أن نهاية ورش النجارة بدأت!

وتحسس نعومة قطعة الخشب: الزبون لا يشتري طبق فول، هذه موبيليا يستخدمها طول العمر.

وبتر ضحكة قصيرة: ستين مقاس ولا قطعية منشار.

أدار وجهه ليعطس، ثم أردف قائلًا: التدقيق مطلوب.

يجيد صناعة الأبواب والشبابيك والأسرة والطاولات والصناديق. يختار قطع الخشب المجردة من العيوب، يعيب على أسطوات في المناصرة وقوفهم بالساعات داخل المغالق، يختارون الأخشاب المعرقة، المليئة بالعقد، من أشجار السنط والجميز، يقلبون في كومات المخزون الذي أصابه التسوس.

يعرف الفرق بين العقد الصلبة التي تشوه، والتعريق الذي يُضفِي على سطح الخشب تكوينات جميلة، يحتفظ في المخزن الملاصق للدكان، بقطع من خشب الجوز، أفضل ما يصنع منه العود، يظل الخشب في موضعه ما يقرب من السنوات العشر، عملية تجفيف ضرورية، قبل أن يبدأ في تجهيز ظهر العود، أو القصعة كما جرت التسمية.

هل كانت قبل سبعة أعوام تتخيل ما صار إليه إيقاع الحياة في المناصرة والشوارع المحيطة بها؟

لم يعُد سكان المناصرة في حاجة للسفر إلى الخليج كي يتعرفوا إلى الدولار والإسترليني والفيديو والمحمول والدش، قلبت تجارة، الموبيليا حياتهم، نشطت حركة البيع والشراء، واتسع الرواج في المعارض المتجاورة على جانبَي الشوارع الرئيسة والجانبية.

عرفت من أحمد تاريخ ما حدث.

أرجأت الكلام حتى تملك القلق تصرفات صفاء، انتظرته أول شارع الأزهر، أمام جامع السبع بنات، في انحناءة سوق التلات. نظرت إلى الدكان من الرصيف المقابل، انتظرت حتى انتهى رنين التليفون، كأن الأرض انشقت وابتلعته. لاحظت انعكاس القلق على تصرفات صفاء، حتى أمها تطلعت إليها في حيرة يمازجها خوف.

قالت في لهجة مشفقة: فاروق في حجز قسم الجمالية.

تخلت عن انتظارها له، فطنت إلى التوقعات المقبلة.

أشار إلى تمثال صغير في مدخل الدكان لقروية تحمل جرة: هذا التمثال ... التجسيد حرام.

قال صاحب الدكان: عندك تمثال إبراهيم باشا ... لماذا لا تهدمه؟!

فاجأ الجميع بما حدث. هوى بقطعة حديد على التمثال، تناثر التمثال قطعًا على أرضية الدكان. قال إن ما فعله هو لنصرة الدين.

قال أحمد نبوي إن الشاب دخل — من قبل قسم الموسكي — شكا التماثيل العارية في محال وسط البلد: هذه تماثيل عارية، حرام أن تعرض للناس في دولة مسلمة.

وُلِد في المناصرة، أمه راقصة، وأبوه عازف عود. دفع حجرة أبويه ذات صباح وهتف في أمه التي لم تكن أفاقت من النوم: تعرية الجسد ليست فنًّا!

لزمت صفاء حجرتها وحيدة، لا تغادرها إلا لدورة المياه. قاسمتها هالة الحجرة، قبل أن تسافر إلى مسقط.

يعروها إحساس بأنها تريد أن تكون وحدها، تختلي بنفسها، لا تتكلم مع أحد، حتى خروجها لتناول الطعام على طاولة السفرة، يطول إلحاح أمها قبل أن توافق.

قالت لأحمد تاريخ: لماذا تترك شقتك مفتوحة؟

– ربما لا يفطن أحد إلى موتي إن ظلت الشقة مغلقة.

وخفض عينيه ليخفي تأثره: أعرف أني سأموت وحيدًا.

بدأ انشغالها به لمَّا اختفى من المناصرة. لم تعد تراه في محمد علي ولا الشوارع المحيطة، حتى قهوة التجارة غاب عن الموضع الذي ألفت رؤيته فيه. زارت شقته في أرض شريف، عرفت أنه يسكنها من قبل أن تزال سراي محمد شريف باشا، وتتحول إلى حي أرض شريف الحالي.

عادت دون أن تضع في بالها خططًا للمستقبل، التدريس هو العمل الذي مارسته بعد تخرجها، لكنها الآن لا تريده، ولا تريد الوظيفة، الحضور والغياب والإجازات والتقارير السرية والجزاءات ومكافأة نهاية الخدمة.

تلفتت حولها، تبحث عمن يشير عليها بما يجب أن تفعله. تناست أمها الحرص على الأسئلة وإبداء الملاحظات، تناست حتى ميلها إلى المرح والفكاهة وإلقاء النكت. حدقت في أبيها، بعد أن غادر صمته، وكلمها عن مشروع باستعادة ما كان لعماد الدين وروض الفرج من مكانة فنية، محمد علي هو الأولى باستعادة الزمن الجميل. استغرقت صفاء في دنياها الخاصة، امتد تأثير الإسدال، فشمل حياتها. قصر عطية انشغاله في الدكان، حتى نصائحه حاصرتها بالضيق، لم يعُد ثمة ما يقوله أحدهما للآخر.

تاريخ بنظرة مستاءة لما نادته: عم مرهون. رمقها أحمد.

– هل نسيت اسمي يا هالة؟!

روى عم مرهون عن سِنِي إقامته الطويلة داخل أبواب مسقط: الباب الكبير، الباب الصغير، باب المثاعيب. أحكمت تطويق المدينة، يقتصر دخول المدينة منها، حياة قاسية، وإن بقي في نفسه ما يؤنسه استعادته. روى العجوز عن الحياة أيام السلطان السابق: الأقدام وسيلة السير، يليها ركوب الجمال والحمير، الممنوعات كثيرة؛ لبس البدلة، ولبس الحذاء، وبناء البيت من الحجارة، أو الأسمنت، حتى الصفير أو الدندنة في الطريق يدخل في إطار الممنوعات، وارتكاب الممنوع يفضي إلى السجن، قصر بقاء المرأة داخل البيوت، عدم الخروج عقب صلاة المغرب، تتعالى دقات النوبة من قلعة الميراني، يعود الجميع إلى بيوتهم حالًا، من تأخرت به العودة يحمل فانوسًا بمفرده، أو يسبق من خلت أيديهم من الفوانيس، يستأذنون حراس الأبواب الثلاثة، يفتحون الباب الذي يغلق مع دقات النوبة، تستمر حركة السير إلى منتصف الليل، ثم تغلق الأبواب، من يلح في الدخول يأذن له الحراس، يودعونه الحبس — لصق البوابة — حتى طلوع الصباح. استعاد الشيخ سِنِي منع السفر إلى الخارج للدراسة أو للعلاج، مَن يغادر قريته فإن عليه أن يودع أهله، فرض تصريح — من السلطان نفسه — بالتنقل بين مناطق البلاد.

قالت الأردنية ميسون لعم مرهون: الأولى أن تكون القائمة للمسموحات، ما عداها ممنوع.

يستعيد السنين الفائتة كذكريات جميلة، لا تشغله الأيام القادمة، وما تحمله. قدم من نزوى — أوائل السبعينيات — ليحرس البيت في أثناء إنشائه، ثم بعد أن قدمت المدرسات. الدشداشة على جسده نظيفة دومًا، يعوج وضع العمة على رأسه، يطل من تحتها شعر أبيض، وصبغ ذقنه بحناء أقرب إلى الحمرة، عيناه صغيرتان، ماكرتان، كأنهما اندفستا في الوجه، تفاحة آدم بارزة في عنقه النحيل، إن خلع أسنانه تداخلت وجنتاه، وصعب فهم كلماته.

عبَّر أحمد تاريخ — في كلمات متباطئة — عن إحساسه بالتعب، حركته تعاني البطء. ينتابه الألم إن جلس، أو وقف، أو حاول المشي، ألم حاد ينخر في فخذه، ربما تصاعد إلى وسطه، يسند رأسه إلى موضع الألم، ويتأوه.

– أمس، كنت طفلًا … وفي اليوم التالي، هذا اليوم، أدركتني الشيخوخة!

وفاضت ملامحه بالأسى: لم يعد الزمن زمني!

لاحظت أنه يستعيد الكلمة، أو العبارة، أكثر من مرة، عرفت أن سمعه ثقيل، لجأت إلى رفع صوتها: أريد أن تعيد إلى محمد علي أيامه الجميلة.

ظل صامتًا بوجه ساكن، ثم رفع عينَين تفيضان بالتأثر: الرقص الحقيقي اختفى، ما نراه الآن هز بطن. مَن تستطيع أداء رقصة الشمعدان؟!

وشى صوته بالحسرة وهو يتحدث عن شوقية سالم في عزها، كل أعصابها وخلاياها تتفاعل في أداء الرقصة، اختلفت عن رقص كاريوكا الباهت، واكتفاء نبوية مصطفى برعشة البطن.

طافت على المكان بنظرة دائرية: السقف مرتفع، تتدلى من منتصفه لمبة وحيدة. النشع احتل مساحات من الجدران، الأرضية الخشبية تخللتها ثقوب سوداء، وشقوق، السرير المعدني في زاوية الحجرة، يقابله مكتب صغير، تعلوه مرآة مستديرة، مهشمة، يسبح في المكان اختلاط روائح البخور والمعسل والتمباك، جعل من الكرسي الخيزران — إلى جانب السرير — شماعة يعلق عليها ملابسَه، استبدل بزجاج أحد مصراعي النافذة كرتونة نتيجة بلا أوراق.

التقط نظرتها المشفقة إلى ورقة الجريدة فوق الطاولة، عليها أرغفة خبز وأطباق فول وطعمية وسلاطة وباذنجان مخلل.

وهو يغالب الحرج: عانيت كثيرًا بعد أن أغلقت قهوة التجارة.

وبلهجة واشية بالألم: اعتدت البقاء فيها إلى ما بعد الفجر.

– القهاوي كثيرة.

قطبت حاجبَيها في محاولة للتذكر: توجد قهوة المشير.

– لي في قهوة التجارة أصدقاء.

صمت لحظة، ثم استدرك قائلًا: أطيل السهر حتى لا أظل في هذه الحجرة.

وران على صوته تخاذل: أدخلها عندما يغلبني النوم.

كان أبوه — نبوي أبو إسماعيل — عضوًا في فرقة حسب الله القديمة. لأنه يحب رواية الأحداث في المناصرة وشارع محمد علي وميدان العتبة والمنطقة المحيطة، سماه رواد قهوة التجارة «أحمد تاريخ». هو راوية التاريخ في الأحداث التي عاشتها المنطقة منذ أوائل القرن. ما شاهده الناس، وما سمعوا عنه، وما يتعرفون إليه للمرة الأولى. ما يبدو قابلًا للتصديق، وما ينسبونه إلى هواجس الخمر وضباب الكيف.

له خبرة واسعة بالملاهي الليلية وسهرات العوالم وأماكن الأفراح وغُرَز المخدرات. يجلس على قهوة التجارة من زمان منشئها اليوناني، وانتقال ملكيتها إلى صاحبها المصري هشام سليمان مزهري. يعتز بأنه جلس إلى زكي مراد والد ليلى مراد، في قعداته على قهوة التجارة.

لم يكن الرواد يملون أحاديثه عن المقامات: النهاوند، والحجاز كار، والبياتي، والسيكا، والرست، ولا حكاياته التي لا تنتهي عن عوالم وراقصات الزمن القديم؛ أسما الكمسارية وزوبة الكلوباتية ونبوية مصطفى، والأفراح والليالي الملاح والأدوار الطقاطيق والموشحات والألحان والمواويل والأشعار. يواصلون وضع أكواب الخمر الصغيرة أمامه. يدفع بها إلى حلقه، حتى يلطشه السكر، وتنفك عقدة لسانه. يتكلم ويتكلم، جعبته لا تفرغ من الحكايات والطرائف والنوادر، لا يشغله إن لم يستمع إليه أحد. يتحدث عن مقامات الربع تون، وعن الفرق بين أنغام البشرف واللونجة والدولاب والسماعي والبلبل، والنوبات الأندلسية بداية من التوشية، وانتهاء بالخلاص، بينهما الكرسي والبطايحي والدرج والانصراف. ربما يثقل عليه الشرب، فيغني. يفتح عينيه، ليجد نفسه مُلقًى على الأرض في شارع جانبي، أو في مدخل بيت، أو لصق جدار. أيقظته ذات صباح حركةُ المرور في ميدان العتبة. وجد نفسه على الجزيرة التي تتوسط الميدان، قبالة مركز المطافئ.

لم تضع تصوُّرًا، أي تصور، لمستقبلها. النقود تسيل من بين يديها، دون أن تفعل بها شيئًا حقيقيًّا، ما تطمئن به إلى المستقبل.

لاحظت أنه يبذل جهدًا في انتقاء الكلمات المناسبة: افتتاح مكتب يحتاج إلى فرقة عوالم.

وفي لهجة معتذرة: لم تكن تُفارِق جيبي قائمة بكل الفرق التي تُحيِي الأفراح.

وشى صوتها بإشفاق: لا أتكلم عن العوالم.

واغتصبت ضحكة: العوالم راحت عليهم!

هز رأسه مؤمِّنًا على قولها: قبل أن تزول دولة العوالم كنت الواسطة في قهوة التجارة بين العوالم وأصحاب الأفراح.

وبدت الكلمات كأنها تتساقط من فمه: اختفت حارة العوالم لأن العوالم أنفسهم اختفوا.

وشوح بيده: زمان انتهى!

عمل «صبيتًا»، مهمته إظهار الإعجاب بالآهات والعبارات المستحسنة، والتصفيق الذي يحرض بقية الأيدي. أحب منيرة المهدية لصوتها الجميل، سمعها في حفل زفاف بالحسينية، تبعها في كل الحفلات التي غنت فيها، يطلق الآهات وصيحات الإعجاب، ظنه أصحاب الأفراح مطيباتيًّا للمهدية، يحسبونه على الفرقة في تناول الطعام وتوزيع الإكراميات.

تصر الأسطى على أن يكون طعام المرافقين لها — وإقامتهم إن كان الحفل في مدينة أخرى — على نفقة أصحاب الفرح. تعتز بأنها مطربة مزاجية، تغني ما تريد غنائه، لا ما يطلبه الجمهور طردت أعضاء فرقتها الموسيقية، لاحظت أنهم ينشزون عن اللحن الأصلي.

قد يعيب على المغني أنه لا يحسن الانتقال من مقام إلى مقام، ينقصه تعلم أصول الغناء، ربما لاحظ على المغني أن صوته من طبقة واحدة.

لما قال حسين عكاشة في نبرة إعجاب: في صوت هذا المغني بحة تعجبني!

واجهه العجوز بنظرة ساخرة: هذا تأثير الحشيش يا مغفل!

وحين رأى عازفة الرق لحيمة الجسد، قال في تلقائية: أجدر بها أن تكون ضاربة طرمبيطة!

يجد نفسه في موالد آل البيت، حلقات الذكر والإنشاد الديني، ودقات الطبول والدفوف، سهرات رمضان بسرادقات حي الحسين، ومولد النبي، وموالد السيدة زينب والسيدة فاطمة النبوية والسيدة نفيسة والسيدة عائشة، وحفلات عقد القرآن والزفاف وحفلات الختان والسبوع، معظمها يعتمد على الابتهالات والتواشيح. حاول تقليد مونولوجات شكوكو وإسماعيل يس والجيزاوي، يضيف إلى مقاطعها نكاتا التقطها من جلساء قهوة التجارة. ربما انضم إلى بطانة الشيخ الشرقاوي قارئ مسجد الشيخ منصور في سرادقاته بموالد البدوي والدسوقي والمرسي أبو العباس. لم تكن الموالد تنتهي في شياخات الموسكي الست: المناصرة ودرب المهابيل والعشماوي ودرب البرابرة وكوم الشيخ سلامة ودرب الحنفية. اعتاد البحث عن حفلات الختان، وعقد القران، والزفاف. تجول قدماه في شوارع القاهرة، يتنقل بين سرادقات الأفراح والبارات والساحات، يتردد على ملاهي وبارات وجه البركة وروض الفرج وحديقة الأزبكية وكازينوهات الهمبرا والبوسفور ونزهة النفوس وألف ليلة وليلة.

رتيبة أحمد هي أول من يذكر من مغنيات الصالات، استمع إليها قبل منيرة المهدية وأم كلثوم وفتحية أحمد، ربما سبقنها، لكنها أطربت بأغنياتها رواد الملاهي بوسط البلد.

يتحسس جرحًا قديمًا في جبهته، أحدثته ضربة كرسي في معركة تراشق بالكراسي. هدد البلطجي جاد الرب بتقفيل الفرح ما لم يحصل على فِردة. اعتبر الأسطى مهدي صبرة والد العروس رضوخه للفِردة إهانة، فرفض. ارتفعت الكراسي، هبطت على الرءوس والصدور والأكتاف، تعالى الصراخ والصياح، وتهاوت الأجساد، وانبثق الدم. غادر مستشفى القصر العيني، بعد أن أسكت جرح الجبهة بست غرز.

لحق أواخر أيام فرقة حسب الله، الطبلة تتدلى من عنقه على صدره، يرفع العصا، ينزل بها، يمسكها قبل أن تلامس الطبلة، يلامس المزمار بشفتيه، هذا ما يفعله معظم أعضاء الفرقة، عدا أربعة: طبال حقيقي، عازف طرومبيطة، آلة منفاخ، آلة نحاسية.

لم يلحق الفرقة في عزها، بدأت أيام الخديوي عباس، أحد عشر عازفًا على الآلات النحاسية والطبل المحلي والنقرزان، عزف أمام السلطان فؤاد — الملك فؤاد فيما بعد — والملك فاروق، يحفظ — حتى الآن — السلام الخديوي القديم: أفندينا دخل الديوان ... والعسكر ضربوا له سلام.

روى عن توقف موكب الملك فاروق وجمال عبد الناصر لمفاجأة عزف السلام الوطني بآلات فرقة حسب الله.

طالت وقفتها أمام صف البنات، على جانب طريق السلطان قابوس، يلوحن بأعلام السلطنة، ترقُّبًا لقدوم ملك السعودية.

نطقت الملامح بالتعب، وتدلت الأيدي مسترخية.

وهو يشير إلى الصورة المعلقة على الجدار: سعد الشريطي مطرب محمد علي.

وعلا صوته في تأكيد للمعنى: يستحق أن يكون مطرب هذا الزمان.

ووشى صوته بالأسى: ظل محل أسطوانات كولومبيا بسليمان باشا يسجل أغنياته، حتى ظهرت الشرائط فأغلق أبوابه.

وهز راحته: مِنُّه لله عبد الوهاب!

روى عن مؤامرات محمد عبد الوهاب لمنع سعد الشريطي من أن يحصل على فرصته. غنى مرة وحيدة في واحدة من الإذاعات الأهلية. لم تتكرر دعوته للغناء، واكتفت الإذاعات الأخرى بما لديها من مطربين. قال رومة العازف في فرقة حسب الله إنه شاهد عبد الوهاب في مكتب مأمور قسم الموسكي، في اليوم التالي اقتيد الرجل إلى القسم بتهمة النشل. أمضى أربعة أيام بلياليها، ثم عاد إلى فرقة حسب الله واحدًا من عازفيها.

تقلصت الفرقة، صار معظم أفرادها من لابسي المزيكا، ضاقت به الحال، فرضِيَ بارتداء المزيكا، يُدني من شفتَيه مزمارًا يتظاهر بالنفخ فيه، يتظاهر بضرب الطبلة، يضمن — في نهاية السهرة — عشاءً به لحم، ومبلغًا يُنفَق على وجبتين أو ثلاث، وربما اشترى علبة سجائر. واجهت الفرقة — فيما بعد — منافسات الراديو والفونوغراف وفرق الآلات الغربية وفرق الموسيقى الشعبية وأولاد عبد السلام. اقتصرت الفرقة على مَن يعزفون بالفعل.

يهز كتفيه لقول رواد قهوة التجارة إنه لا يفهم الموسيقى الغربية، ولا يحاول فهمها. أخذه الربع تون والبشارف، فنسي أن الموسيقى الحقيقية تختلف عما سمعه. يحب الآلات الموسيقية الشرقية؛ الناي والقانون والعود والطبلة والرق. المقامات الشرقية تطريب؛ الرست والبياتي والسيكا والصبا والحجاز، أما الموسيقى الغربية فتعبير.

يبدي ضيقه بالآلات التي تستخدمها الفرق الجديدة: الجيتار، البيانو، الأورج، الدرام، الجيتار الإلكتروني، الإكسيليفون، هي آلات زاعقة. عاب انجراف المغنين وراء موسيقى اللحن، يرددون الكلمات مغناة، دون أن يتنبهوا إلى المعنى الذي تحمله.

وهو يقلص ملامحه تأثرًا: كانت آخر حفلات أم كلثوم نهاية عصر من الفن الجميل.

قالت مداعبة: والآن؟

– صراخ بلا معنًى!

وتغيرت ملامحه بالأسى: راحت أيام الطرب.

أضاف وهو يعبر بيديه: المغني الذي لا يجيد القفلة، أولى به أن يبحث عن مهنة أخرى!

– أنت — في رأي عطية — تعتبر الألحان الجديدة إساءةً لفن الموسيقى!

ودارت ابتسامة: قال إن آخر ما تعترف به ألحان عبد الوهاب القديمة، وربما أغنيات السنباطي لأم كلثوم!

ارتعشت أرنبة أنفه، انبجست فيها قطرات عرق.

– أنا من جيل السهر لسماع أم كلثوم، هذا الزمن لألحان السندوتشات.

استعادت ابتسامتها: لكن الأذن لم تعد تتحمل التكرار والرتابة والملل، الإيقاع السريع بديل لإيقاع الزمان القديم البطيء.

وهي تضغط على شفتها السفلى كأنها تمضغها: لم يَعُد السهر يطول، كان يطول في سماع الأغنيات، لا بد للأغنية أن تقصر.

قال في هيئة مَن لم يُصغِ إلى كلماتها: كان المطرب زمان مطربًا فقط، يقف ليغني. نحن الآن في زمن المطرب الراقص أو الراقص المطرب ... لا يغني قدر ما يرقص! وقال: أغنيات هذه الأيام ينقصها السلطنة! وقال: إنهم يعزفون على آلات تحدث صوتًا، ولا يقدمون طربًا، الطرب تجده في ألحان سيد درويش وداود حسني وزكريا أحمد ومحمد القصبجي ورياض السنباطي. وقال: رياض السنباطي هو أعظم عازف على العود في تاريخ الموسيقى الشرقية، يجيد التحكم بالريشة في عزفه.

– وفريد الأطرش؟

– يصلح للبس المزيكا وراء السنباطي!

يرى أن عبد الحليم حافظ كان نهاية رحلة، أخذت معها حتى الأصوات التي كانت تجد في عبد الحليم منافسًا شرسًا، وقال: جواب السيكا، ذروة إمكانات الصوت البشري. تعلو طبقات الصوت، وتخفت، وتمتد، وتقصر، وتداخلها بحة.

– مِن حق عوالم محمد علي أن يستردوا صيتهم القديم. راح عبد الحليم وجيله، ويبقى عدوية ونبيلة السيد وشفيق جلال وغيرهم من أبناء محمد علي.

وهز راحته في تأكيد: عبد المطلب هو الأستاذ الحقيقي لمحمد رشدي ومحمد العزبي وشفيق جلال وعشرات غيرهم.

رسمت على شفتَيها ابتسامة واسعة لتشجعه على مواصلة الكلام.

مصمص شفتَيه: مسكين ... لم ينَل حقه.

ومسد صدره براحة يده: لو أني صرت مغنيًا ما كان نافسني أحد.

يعتز بأنه أدخل تعديلات لحنية على أغنيات لمحمد رشدي ومحمد عبد المطلب وشفيق جلال وسيد مكاوي وحلمي أمين، جميعهم أكلت كراسي المقهى من أبدانهم، يحتفظ في جيبه بصورة متآكلة، وهو يجالس يحيى حقي على قهوة التجارة، عيناه تتجهان إلى الكاميرا، وعينَا حقي تتأملان المكان.

إحراق الأوبرا — أُحرِقت بفعل فاعل — هو أسوأ أيام حياته، أسوأ حتى من نهاية العوالم، وصعوبة لقمة العيش، قطعة من جسدي احترقت، قتلني احتراقها دون أن أملك دفعًا للنيران، مَن لم أستطع مشاهدتهم في مسارح عماد الدين وروض الفرج، شاهدتهم في الأوبرا، أسماء لها وزنها: أم كلثوم، فريد الأطرش، جورج أبيض، يوسف وهبي، زكي طليمات، أحمد علام، وغيرهم.

ظل على ارتدائه بذلة العمل السوداء، وياقة القميص البيضاء، يطيل جلوسه في مقهى التجارة. تلجأ عوالم المناصرة إليه لسد النواقص في حفلات الزفاف: عازف قانون، عازف كمان، ضارب طبلة، أو رق، مطيباتي. تردد على قهوة أم كلثوم بالتوفيقية، أخفق في أن يكون متعهد أفراح وموالد. وضع في جيبه قائمة بالأسماء والأجور والعناوين والفقرات، لكن الظروف بقيت على حالها.

أخذت الأيامُ عوالِمَ المناصرة ومحمد علي، لم يعُد يحتكم على ما يشتري به قوت يومه، اعتاد التنقل بين بارات محمد علي وشارع الألفي وسليمان باشا. يسمح له صاحب كل

بار بكأس واحدة. لا يشترط مشروبًا محددًا، مجرد أن يبل ريقه. يعرف مواعيد البارات، ما يغلق أبوابه في منتصف الليل، وما يظل مفتوحًا إلى الصباح، يواصل الشرب حتى تدور الدنيا في عينيه، يحس جسده خفيفًا يعلو فوق المكان، والنشوة تجتاحه، تدفعه إلى فعل ما لا يتوقع هو أن يفعله.

آخر الليل، يعود إلى حجرته. يكتفي بنزع حذائه، قبل أن يطفئ النور، يتمدد على السرير، ويروح في النوم.

تنبه على صيحات الأولاد وهم يضربونه، ويجرونه من بذلته، اتسخت، وتمزقت. تحول كتفاها إلى مزق. لم يتمالك نفسه من تأثير الشراب، مالت المرئيات، اعتدلت، تكورت، استطالت، انبعجت، تشابكت الملامح واختلطت.

خذلته ركبتاه، فسقط، تخلص من أيديهم، زحف على يديه ورجليه، زحف بطول جسده حتى بلغ الرصيف، استند عليه، بكوعيه، وجلس. فسَّر أبوها احمرار وجه أحمد تاريخ الدائم بإدمانه الخمر، تبكُّ في وجهه.

رآه حسين عكاشة.

لاحظ الأولاد اهتزاز مشية أحمد تاريخ، خمنوا سُكرَه، قذفوه بالحجارة. لما تطوحت ساقاه في السير، عرف الأولاد أنه أسرف في شرب الخمر، قرن سيره بالدندنة والغناء والتصرُّف بغير المتوقع.

أدرك حسين عكاشة أن أحمد تاريخ لا يقوى على التحرك من موضعه. وضع يديه تحت إبطيه، ورفعه: ماذا تفعل هنا؟

وهو يتلفت حوله: أين أنا؟

– قلل من السكر يا عم أحمد!

– لا شأن للسكر بما حدث.

أردف وهو يغتصب ضحكة: نمت على علقة لا أذكر ظروفها ... ثم صحوت الآن!

حاولت هالة — في انتظارها لأبيها على ناصية محمد علي — أن تخمن ما حدث، لكن الزحام الذي شكل دائرة أخفى ما يتوسطها. لم تعرف أن أحمد تاريخ هو مصدر الزحام، هو الذي استدعاه.

تبدلت تعبيرات وجهها وهو يستعيد — بتلقائية — ما فعله الأولاد.

تصيدت الفرصة لتسأله: هل هو عشقك القديم للتمثيل؟

– الأولاد ملاعين!

– حرضتهم بإدمانك!

وهزت إصبعها محذرة: لم تعُد صغيرًا يا عم أحمد، إن تكرر ما حدث، لا تترك البيت!
ووشى صوتها بلهجة مداعبة: ألم تنضم لنقابة الموسيقيين يا عم أحمد؟
– فتحت النقابة باب العضوية وأغلقته دون أن أعرف!
وهو يربت صدره: تأخذينني؟!
هتفت بعفوية: أنت؟!
ولان صوتها بلهجة معتذرة: عملي لا شأن له بالموسيقى والغناء.
– لا يهم ... أقضي المشاوير ... أقف على الباب ...
وهي تربت كتفه: ربنا يفعل الخير!

شعر أنه تسرع بما لم يتدبره، التقط انفعالها الوامض، وإن سكت عن الرد، تملكته — في الأيام التالية — حيرة: هل يعتذر لها؟ وماذا لو أنها لم تفطن إلى ما يغضبها؟ يغادر الدكان إلى معهد الموسيقى بشارع رمسيس، ربما أمضى وقتًا في أكاديمية الفنون، تظل خواطره مشدودة إلى شقة درب الطاحون، إلى الحجرة المطلة على الدرب، لا يتخيلها في هيئة محددة، وإن بدت له حزينة، غاضبة. استعاد قصة لتشيخوف، توهم الموظف أنه أساء إلى رئيسه في العمل، حين عطس في قفاه. أهمل الرئيس توالي اعتذاراته، لكنه واصل الاعتذار في لقاءاتهما حتى نهره الرجل، عاد إلى بيته ذليلًا، تمدد على فراشه، ومات.

هو يحب هالة، لا بد أنها تعرف ذلك، لو أنه أومأ إلى المعنى السخيف، فستصفح، تعفو، تظل علاقتهما على توثُّقها.

كيف يلتقيان، ماذا يقول أحدهما للآخر؟

خطر له أن يراقبها ليعرف أين تذهب. يتمازج التوقُّع والتمني في أن يراها في سكة المناصرة، أو في الشوارع المفضية إليها. يعيد النظر في مفردات حركة الطريق: الدكاكين، مداخل البيوت، محطة الأوتوبيس، عربات الباعة، سور الأزبكية، بناية المسرح القومي، فاترينات أحمد حلاوة، معرض ويلسون الحلواني، محل بريموس بواجهته العريضة، واللافتة الممتدة بالمساحة نفسها.

بدا في علاقتهما ما لم يكن لاحظه من قبل، ما دفعه إلى استعادة البدايات القديمة، وصلها بما طرأ عقب عودة هالة إلى حياته، وتصورات المستقبل. كأن الأعوام التي سبقت عودتها فترة انحباس، لم يتخيَّل ردود الأفعال، ولا أعدَّ نفسه لها، تأخذ الرعشة جسده في توقعه أن خيالها هو ما يراه خلف ستارة النافذة، ارتباكه عند جلوسهما، اتجاه عينَيه إلى الشرود فلا يواجه نظراتها، ما لم يكن يشعر به، حتى في ترددهما على شوارع وأماكن خارج المناصرة.

التقاها في تقاطع سكة المناصرة وشارع محمد علي، تظاهر — عند قدومها — بلقاء المصادفة، صافحها، وسار — في صمت — إلى جوارها، ضبط إيقاع خطواته فلا تتقدم أو تتأخر.

حاول أن يفض ما بنفسه، يقول شيئًا مما يشغله من علاقتهما، لكنه لزم الصمت، اكتفى بالسير إلى جوارها، يتابع بجانب عينه اتجاه نظراتها، وإن كانت تلتفت ناحيته. يتوقع أن تشتبك نظراتهما في لحظة، يعقبها فعل من أي نوع: تحية، سؤال، ملاحظة ...

هذا التغير في تصرفاتها، والذي يصعب تفسيره. كمن تلبستها روح متمردة، لا تريد أن تفارقها، ويتعذر ترويضها.

حدس أن ما تعيشه انعكاس للتغيُّرات التي دخلت حياتها في الفترة الماضية. لم يتغير ظنه أنه لا يزال من الممكن استمرار علاقتهما. أكثر ما يشغله في الحياة هو: كيف يستردها؟

استقبلته في البيت، يسلم على خالته، يجلس إليهما في الحجرة المطلة على سكة المناصرة، يتبادلون الكلمات، أو يلفهم الصمت. يتمنى لو أن اللحظة تجمدت، لا تتحرك، لا شأن له بالدنيا في الخارج، يشعر أنه قريب منها، يعيش دفء اللحظة. تداخله نشوة لمجرد أن يلتصق كتفه بكتفها، أو تلامس أصابعه ظهر يدها، أو ساعدها.

قالت أم عطية: أحببت العيش معنا.

رفعت أمامها قبضة مضمومة: أنا لم أسافر حبًّا في السفر، ولا بحثًا عن المال.

احتضنتها أم عطية بنظرة مشفقة: أمك تريد مصلحتك.

في نبرة حاسمة: أعرف.

تتكلم مع خالتها، تأخذ وتعطي، تستعيد أيام السلطنة، تتحدث عن المستقبل، لا تلتفت ناحيته، كأن حضوره لا يعنيها.

حين يخلو إلى نفسه — ليلًا — في حجرته، يستعيد طيفها: عينيها اللوزتين، شعرها الأسود المنسدل إلى كتفَيها، شفتَيها الرقيقتَين، أنفَها الدقيق. يناجي الطيف، يأخذ منه ويعطي، يوضح لها ما يعانيه فتُظهِر فهمها وتأثرها، يقفزان من النافذة إلى أجواء — يتخيلها — من العذوبة والسحر، يتنقلان بين الطريق الصاعدة إلى القلعة، وبواكي محمد علي، وزحام شارع الأزهر، وساحة الحسين، وباعة كتب سور الأزبكية، وشوارع وسط البلد.

هل تُظهِر الملامح ما يحرصان على إخفائه؟ وإلى متى هذا الحرص؟ هل تقبله زوجًا؟ هل ترضى مَن يتقاضى العاملون معها رواتب أعلى من راتبه؟ هل تفطن خالته إلى ما يعانيه؟

تقاربت زياراتها له في هدأة الليل، تلزم جلستها على طرف السرير، ترنو إليه، وتحكي، تختلط حكاياتها بما قرأه عن الحياة في مسقط، بما كان يحرص — أثناء سفرها — على قراءته في الإنترنت والفيسبوك والتويتر.

كنت أنتظرك كل تلك السنوات، لكنك عُدتِ فتاةً أخرى غير التي كنت أنتظرها. تتحدثين عن شراء الشقة، وحجز السيارة، وإيداع النقود في البنك، وعن الستائر والنجف والموكيت وما ينبغي فعله لتعويض أيام الغربة.

اشترى من سور الأزبكية كتابًا في الرسائل الغرامية. أخفق في اختيار الكلمات التي تعبر عن حبه. فضل أن يحاول الالتقاء بها، يكلمها، يصارحها بمشاعره، تبدي اهتمامًا، يواصل البوح. يلوح الضيق في ملامحها، فيبتعد، ينسى الأمر، كأنه لم يكن.

لاحظت الارتباك الذي لا يستطيع السيطرة عليه، حين يزور البيت، أو يلتقيها مصادفة. يراقبها، يكتفي بالنظر. أومأت له كي يتكلم، لكنه ظل صامتًا يغالب الحيرة. لم يعرف كيف يبدأ، نسي أن يدير — بينه وبين نفسه — ماذا يقول لها، وبماذا ينتظر أن ترد عليه. زارته — في أحلامه — مرات كثيرة، التكوين الجسدي، الملامح التي ألفها، أطياف يسهل نسبتها، ومضة خاطفة، كلمات يعرف صاحبتها، وإن لم يعرف مصدرها.

لمحها — ذات صباح — في فنجان القهوة، عاود النظر، لكن الومضة اختفت.

– هل ستظلين في المناصرة، أم تنتقلين إلى حي آخر؟

– سأشتري سيارة ... لو سكنت آخر الدنيا أكون قريبة من المناصرة.

يشعر أن شيئًا ينقصه بدونها، يفتقدها، يغمض عينيه على صورتها، لا يستطيع أن يبعدها عن مخيلته، تظل في باله.

ربما افتعل مشوارًا يخترق المناصرة، من محمد علي أو إليه، يتجه إلى درب الطاحون، يُمنِّي النفس بأمل رؤيتها تطل من النافذة، تدعوه فيلبي، يكتشف خطأ تصوره، أو يعاتبه فيعتذر، ينتهي عذابه.

يرى خيالات تتحرك من خلف النافذة المضاءة، الجسد الفارع لأبيها، أمها ممتلئة الجسد، حتى صفاء — برغم امتلائها — يختلف تكوينها الجسدي عما يراه خلف النافذة. يغالب تردده في الصعود. يضايقه أنها تسأل وتجيب وتناقش وتنظر، دون أن تلتفت ناحيته، كأنها لا تحس به، كأنه ليس موجودًا.

يعيد طرح ما يجري على نفسه، ما يجعل من الصداقة أمرًا متاحًا، أو ضروريًّا. القرابة، والنشأة الواحدة، وتواصل العلاقة، حتى بعد عودتها إلى القاهرة: التمشِّي في الشوارع، التردد على دور السينما والكازينوهات والمطاعم.

لماذا اهتز ما كان ثابتًا؟ ما الذي رفع القضبان من مكانها؟

لا يعرف ما ينبغي عليه فعله كي تعود إليه، يستعيدان علاقتهما القديمة. يتمنى أن يجد القدرة التي تمكنه من أن ينظر في عينيها، ويصارحها بما في نفسه.

يبحث عن الجرأة في داخله، يهم بمصارحتها، لكن الحاجز — الذي لا يراه — يحول بينه وبين الفعل.

لم يكن متأكدًا ما إذا كانت تبادله الشعور نفسه الذي كان يعانيه، هي ترد على أسئلته بأجوبة غامضة المعنى، تكتفي بالبسمة المحايدة، الغامضة.

يحرص — إن مرت به — على ابتسامة تملأ وجهه، ينتظر كلامًا، أو حتى إشارة أو إيماءة. تتظاهر بأنها لم تره، وتواصل السير.

لو أنه رآها فسيتجاهلها. تعرف أنه هو، وأنه رآها، تبادله التجاهل نفسه، كأن أحدهما لا يعرف الآخر، ولا التقى به من قبل.

تعمد ألا يلتقيها حتى لا تلتقي أعينهما، اعتاد التهرب من رؤيتها، فلا يخضع لتأثير نظراتها.

تجنب السير في شوارع المناصرة، يخترق شوارع أخرى تفضي إلى محمد علي، أو الأزهر، أو ميدان العتبة.

حرص — هذه المرة — على أن يواجهها، يحدق في ملامحها، يقاوم رغبة في أن يلمس بشرتها، يدها، خدها، عنقها، يمسد شعر رأسها.

لاحظت نظرته المتسللة، فابتسمت، لما تلاقت الأعين اتجه بنظرته — مرتبكًا — إلى الناحية المقابلة. توقع أن تنادي عليه، تقف، أو تبطئ، تسلم، تسأله عن أحواله، يجرهما الكلام إلى ما يشغله. يعروه الإخفاق لإدراكه أنها لم تلحظ محاولاته كي يلفت نظرها.

هي أجمل شيء في حياته كلها.

تمنى لقاءها، يحكي لها معاناته، وما بداخله من أسئلة، آله — حين التقيا في بيت خالته — أنه لم يكن أعدَّ ما يقوله، لفه الارتباك، وظل صامتًا.

لو أنها تبقى جانبه، لو أنها تزوره في الدكان، وتطيل وقفتها، لو أن الجمود البادي — في الحياة داخل بيت المناصرة — يتيح له زيارتها.

تمنى أن يفعل شيئًا، أي شيء، يجتذب نظرها، تطلق صيحة الدهشة، أو الإعجاب، تناوشته الفكرة، لكنه لم يستطع تصور الفعل الذي يرضيها، تبدو منشغلة بما تكرره في كلامها.

لم يعد لديه قدرة على مقاومة ما يشعر به ناحيتها. يأخذه التمني، فيفعل لها — في تصوره — ما لا يقدر عليه أحد، تعلو يداه إلى السماء، تنزلان بالنجوم، ينثرها تحت قدميها. أزمع أن يبوح بما يعانيه، وإن بدا الأمر صعبًا، يمنعه الخجل من أن يبوح بمشاعره. تتحرك الكلمات في فمه، تكاد تلتصق بحلقه، لكنه يعجز عن نطقها.

ردت تحية مَن لا يعرفه. لامها — بينه وبين نفسه — كيف تكلم من تلقاه في الطريق، سائرًا، أو جالسًا على باب دكان، أو مطلًّا من نافذة. خشي — لو أنه صارحها بما يضايقه — أن ترفض تدخُّله في حياتها.

زاد ابتعادها عنه في الفترة الأخيرة، وتتحاشى الكلام عندما يكونان بمفردهما. تتصرف بما يشي أنه لا يلفت انتباهها، ولا تلحظ وجوده.

لم تعد تنظر ناحيته، كي لا تواجه عينَيه، إن تكلمت لا توجه إليه كلمات من أي نوع، لا تخصه حتى بنظرة يشعر معها بتوثُّق علاقتهما.

شعر أن العفوية غابت عن تصرفاتها، وبدت كلماتها محسوبة. يسأل نفسه قبل كل لقاء، وفي أثنائه: كيف يتصرف؟ كيف يبدأ الكلام معها؟ ماذا يقول لها؟ هل يسأل أو يكتفي بالإجابة عن أسئلتها؟ وإن بادرته بسؤال: بماذا يرد عليها؟ هل ينظر إليها، أو إلى ما لا يتبينه هو نفسه؟

حين يدخل الشقة، يبحث عن عينيها، ترتد نظراته حين تلحظ اتجاهها، يداهمه ارتباك. يلاحظ تبدُّل ملامحها، كأنه يخشى أن تغضب لرؤيته. فات أوان كان كل منهما ينظر للآخر بنظرة تخصهما، وتلغي الآخرين. تتصنع عدم الانتباه، أو الشرود، فلا تعطي الفرصة لعينيه كي يثبتان عليها.

سألت عن عطية ليلة عودتها إلى المناصرة، كان تصورها أنها في حاجة إليه، مثلما هو في حاجة إليها، ثم تبينت — فيما بعد — خطأ التصور. أدركت أن مشاعرها إزاءه غير مستقرة.

قالت لأمها وهي تعد نفسها للخروج: أنا مشغولة لحد عدم التفكير في الزواج.

داهمها — في كلماته المتعثرة — شعور بالمفاجأة.

لا تتصوره زوجًا.

ألفت نظراته الحانية، والكلمات التي لا يلغي ما قد يتخللها من الحدة إشفاقها، واللمسات العفوية من يده، حتى عندما كان يحتضن يدها في عبور الطريق، لم يكن يضغط عليها بما يلفت انتباهها.

لا تأخذ عليه معنًى ما، ولا تكرهه. البساطة في كلماته وتصرفاته تبعد التصور عن المعاني التي تعرفها، وترفضها، التقت أصحابها في المناصرة ودار العلوم والوايلي ومسقط، أومئوا بدعوات مضمرة وإشارات وتلميحات، قالوا كلمات صريحة. لم يصدر عن عطية شيء من ذلك، لكنها لا تشعر تجاهه بأي مشاعر، لا تتصوره حبيبًا ولا زوجًا، لا تتخيله في علاقة حسية، ولا تتخيل أنه يلامسها على أي نحو. حرصت على أن تضع مسافة بينها وبينه. لم تكن مشاعرها عدائية بقدر ما شغلها أن توضح له طبيعة العلاقة بينهما.

أراد أن يقول شيئًا، خذله افتقاد لسانه. أطال التحديق في وجهها، كمن يستوعب ما يصدر عنها من انفعالات، لمح في عينيها ما يشجعه على الكلام.

– إما أن توافقي على عرضي بالزواج، أو لا يرى أحدنا الآخر.

أضاف في لهجة تذكيرية: تعاهدنا على الزواج.

لا تذكُر أنهما تعاهَدَا على أي شيء. فتحت عينيها على الدنيا لتعرف أن عطية ابن خالتها، يثيرها تصوُّره أن ارتباطهما أمر مفروغ منه.

– تعرف أني أكبر منك بثلاث سنوات؟

نكس رأسه، وزم على شفتيه: لو أنك وافقت فلا مشكلة.

المسافة بينهما اتسعت، لا يسمع أحدهما الآخر، وقد لا يراه جيدًا. جعل كلٌّ منهما نفسه في جزيرة منعزلة، لا صلة لها بالجزر الأخرى من حوله. هي لم تكن قريبة منه ذات يوم، ولا عرف هو على نحو حقيقي، مشاعره لم تتبدل، لكنه أخفق في أن يعيد، تعيد، علاقتهما إلى ما كانت عليه. يهم أن يحدثها عن مشاعره، لكن لسانه يقف في حلقه.

وهي تُغالب إحساسًا بالارتباك: أنت إنسان طيب، لكنك لن توافق أن يكون مرتبك كزوج أقل مما تكسبه زوجتك.

ثم بجرأة لم تتوقعها في نفسها: أظلمك وأظلم نفسي لو قبلت الزواج منك.

وأحست بالملل، وعدم الرغبة في الكلام: أنت بالنسبة لي أخ، لا أشعر نحوك بغير عاطفة الأخوة!

عرف أنه لن يصل في حبه لها إلى شيء، لن تقابل النظرات المتحيرة بغير الصمت واللامبالاة، وربما التسخيف إن جاوزت النظرة حد الإيماء، لا سبيل إلى ردم الهوة الواسعة التي تفصل بينهما.

أزمع أن يكتم حبه، حب صامت يصعب التعبير عنه بالكلمات. يؤمن أنهما خُلِقا ليحب أحدهما الآخر، ضبط نفسه، وهو يردد اسمها.

تملكه الشك أنه ربما يفقدها في عملها الجديد، لم يشغله الأمر عند سفرها إلى مسقط، ولا حين إقامتها في بيت خالته بالوايلي، ولا ابتعادها الطويل عن المناصرة. لم يزايله الاطمئنان في أنها ستعود ذات يوم.

هذه المرة فرض الشك نفسه بما لا يستطيع إغفاله، لم تبتعد عن الحي، وإن تبدَّل شيء فيها، ربما تعبيراتها أو حركاتها، والملاحظات، والآراء الساخطة، والانزواء فيما تحجبه.

نظرت إليه.

لم ترَ فيه — للمرة الأولى — سوى النظرة العاجزة، ربما لامس عاطفتها نحوه، لكنه أهمل النظر إلى أبعد من المناصرة، المناصرة حياته.

– ما أريده أن تتركني في حالي.

حدجته بنظرة مستغربة، لغياب رد فعله على كلماتها، وأعرضت بعينَين غاضبتَين، تنظران إلى نقطة بعيدة: سنظل أولاد خالة ... لكن صداقتنا انتهت.

وأشاحت بيدها في إنهاء للمناقشة: كيف تتزوج وأنت لا تملك إيرادًا ثابتًا؟

أحست أنها لم تعُد تحتمل، وأن عليها أن تصارحه بما في نفسها، مشاعرها الحقيقية. تُنهي الموقف على أي نحو. يضايقها أنه جعل من مسئوليته مراقبتها وملاحقتها، وإشعارها أنه مسئول عنها. لاحظت افتعاله المشكلات، وتصيُّده الأخطاء، مهما كانت عفوية أو تافهة. لم تعُد تعنيه أسئلتها المعلنة، ولا مشاعرها.

حسمت الأمر، شعرت براحة لأنها أظهرت ما حرصت على إخفائه، لم يعُد يشغلها إن أغضبته برأيها، تستطيع أن تتصرف كما يحلو لها، لا تتلقى ملاحظات، ولا أوامر، ولا تقدم تنازلات.

تهيأ لهذه اللحظة، وإن شعر كأن شيئًا ما — لم يستطع تبينه — قد انكسر في داخله، ما أحزنه أنه — حين جاءت — لم يدرِ كيف يتصرف. أدرك أنه لم يعُد لديه — في مواجهة كلماتها القاسية — ما يقوله. فسَّر الأمر بأنها لا تعاني ما يعانيه. أسلمت نفسها لدوامة العمل، لا تهبها وقتًا للتلفت.

قال ليستثير مشاعرها: أعرف أني لم أعُد زوجًا مناسبًا.

ثم في لهجة متذللة: أقسى شيء أن تحب إنسانًا لا يحبك!

أطلقت أفففف طويلة: لا تدفعني إلى رفع صوتي!

لم تستوقفها الكلمات، ولا أغضبتها، ما أثارها حرصه أن يكون في الصورة التي لا تريدها، يلح في تأكيد المعنى، والاعتذار.

آن لهذه العلاقة أن تنتهي.

ظل في وقفته، يأمل في كلمة أو إيماءة، لكنها اخترقت الزحام، غابت فيه.

لا يعرف إن كان سيراها ثانيةً، أم أنها لن تعود إلى حياته.

حين كلمها أحمد تاريخ عن مجدي مخيمر، فطنت إلى أنه لاحظ ارتباكها، زكَّاه بشركته التي لا يقتصر نشاطها على الاستيراد والتصدير، يمتد إلى كل ما ينمي المال.

تفحَّصته بجانب عينها: القامة الطويلة، البشرة السمراء اللامعة، الفكان العريضان، الشارب النحيل كخط فوق الفم. يضع عطرًا نفاذ الرائحة.

تعددت الصفات التي قدم بها الرجل نفسه: أستاذ في دراسات الجدوى، عضو مؤسس في وكالات دولية، خبير في المؤسسات العالمية الأجنبية.

عهدت إلى أحمد تاريخ بالوقوف على باب المكتب الخارجي، حدست أنه غير قادر على أداء أي عمل آخر. لم تكن تثق في قدرته على التصرف، واتخاذ القرار الصحيح.

قال أحمد تاريخ: الزمن دوار ... كنت أقف أمام قهوة الست منيرة المهدية نزهة النفوس ... الآن سأقف أمام شركة محترمة!

اكتفت بالجلوس وراء المكتب في الحجرة الوحيدة. ترتدي فستانًا واسعًا، ياقته منشاة، وأكمامه تصل إلى رسغَيها. تحيط رأسها بإيشارب رقيق، غطى شعرها وعنقها وأعلى كتفيها.

قصرت تعاملها على الشركات التي تطلب جماعات من العمال والموظفين، يرهقها الأفراد الباحثون عن فرص العمل. تغيظها النظرات التي تعكس رغبة في الحصول عليها، لا الحصول على عمل، هي أنثى، وهو رجل، شاب، ما عليه إلا أن يطيل التحديق في عينَيها!

لم تعُد تتوه في شوارع الحي ودروبه وأزقته. أضافت التعرف إلى النواصي والمسارب والبنايات، والجالسات في مداخل البيوت، والأخشاب المكومة أمام الدكاكين، والوجوه التي اعتادت إطلالها من النوافذ، وروائح الكارينا والغراء والأستر ونشارة الخشب. وصلت ما كانت قد ألفته — قبل سفرها — بالملامح الجديدة، هي ما تسير بجواره الآن، ولا تلقى غربة.

تصورت الأمر سهلًا حين أمسكت أوراق الاستبيان، وبدأت في طرق أبواب الحمرية، تسأل عن الاسم، والمهنة، والحالة الاجتماعية، والإيراد الشهري، وغيرها من الأسئلة التي ملأت ثلاث ورقات، تسلمتها كما تسلمها مَن وافق على المشاركة في عمليات الاستبيان من المدرسات. ارتفاع المكافأة أغراها بالقبول.

بدا الأمر سهلًا، كل ما عليها أن تُعنَى بشقة أحمد تاريخ، وبتأثيثها، وتترك بقية الخطوات لمجدي مخيمر، يتولى — بما تحدث به عن نفوذه — تيسير فرص العمل في الخليج.

قال حسين عكاشة: التعامل مع التلاميذ يختلف عن التعامل في السوق.

تأملت نصيحة مجدي مخيمر أن تفتح مكتبة لبيع الأدوات المدرسية، وبطاقات التهنئة، والمفكرات، والنتائج، وأوراق الزينة.

وهو يزكي فكرته: المشروع — ولو كان صغيرًا — أفضل من الإيداع في البنك.

وارتفع صوته بالتحمس: تصوري بعد عشر سنوات ماذا ستكون عليه القيمة الفعلية لنقود هذه الأيام؟!

رفعت رأسها، رأت عيناه مشدودتَين إليها.

قال كالمتنبه: لماذا لا نضارب في البورصة؟

استوقفتها نون الجماعة في عبارته.

– لم أدخلها.

فوت الملاحظة: من يحسن المضاربة يجني أرباحًا هائلة!

أضاف بنبرة ذات معنًى: إذا توافر المال، فإن كل شيء يصبح سهلًا.

حكى عن تجار موبيليا في المناصرة، استثمروا نقودهم في البورصة، حققوا ثراءً أغناهم عن تجارة الموبيليا.

وفاجأها باحتضان يده أصابعها: الطرق الحقيقية في التجارة تنتهي إلى البورصة.

وهي تسحب أصابعها من ضغطة يده: معرفتي بالبورصة لغز لم أحاول أن أفهمه!

ثبت على فمه بسمة استخفاف: الاقتصادي الشاطر فرصته هنا أفضل من الخارج.

عرض عليها ما لم تتصور أنها تفعله. تخلف مبنى البورصة وهي تمضي من شارع طلعت حرب إلى شارع قصر النيل، لم تحاول تصوُّر ما بذهنه، هزت رأسها برفض الفكرة، وهزت رأسها لفكرة أن تشتري هدايا خان الخليلي، ومعروضات دكاكين الأنتيكات في شارعي هدى شعراوي وقصر النيل. رفضت أفكارًا أخرى بشركات لا تعرف أنشطتها، وجدت في مكتب التشغيل ما يدعو إلى التأمُّل، جربت السفر، وتعرفت إلى مَن كانت مكاسب التشغيل واسطتهم.

لماذا لا تجرب؟

قالت كمَن حسمت أمرها: كيف؟

فكرت في أن تعمل بالاستيراد والتوكيلات، تقرأ في الصحف «الوكيل الوحيد»، لماذا لا تكون وكيلًا وحيدًا لبضاعة ما؟

قفز إلى ذهنها أن تفعل مثلما كان يفعل حمود نصيب كفيل العمال بمسقط. يستقدم العمال من الهند وبنجلاديش والفلبين، يعطي العامل ما حدده له من أجر، ويحتفظ

بالباقي. هذا هو عمله، هذه هي حياته. فكرت في الأمر، لكنها تنبهت إلى أن الكفالة مهنة شخص آخر، مكانه في مسقط وليس القاهرة. عرفت مشكلة الكفيل، عمله الوحيد استخراج الكفالات للوافدين، كفيلها وزارة التربية والتعليم. ظروف سفرها تختلف، لا مكاتب للتسفير، أو تشغيل العمالة، التقت اللجنة العمانية، وسلمت أوراقها.

كتب مجدي مخيمر وهو يعلو بصوته، عن شركة «النجوم الخمسة لتوظيف العمالة» — هو الذي اختار الاسم — لتوفير تأشيرات الزيارة، والتأشيرات التجارية والسياحية لدول الخليج.

بدا كمن يبحث عن الكلمات، ثم أضاف: «يُسعدنا خدمتكم، لا تترددوا في الاتصال بنا.»

المكتب في الطابق الأول من بناية بشارع بورسعيد. الباب يُفضي إلى صالة، فرشت أرضيتها بالموكيت، وعلى الجانبين كراس من الجلد، ينتظر فيها المترددون على المكان. غرفة المكتب في المواجهة، وإلى يمين المدخل طرقة طويلة، تُفضي إلى المطبخ ودورة المياه.

صحبها أحمد تاريخ إلى مكاتب العمالة، تصعد إلى الطابق الذي تشير إليه اللافتة، يسألان، هو الأب، وهي الابنة، يتعرفان إلى طبيعة العمل، منذ كتابة العقود حتى تسلم تذكرة الطائرة.

أتاح لها التنقل بين السفارات والإدارات الحكومية، استعادة ما تذكره من العيش خارج مصر، صور الحياة في عمان هي التي تقفز إلى ذاكرتها؛ الجبل الأخضر، القلاع، الأبراج، سوق السمك بمطرح، شارع نور الظلام، الطريق الصاعد إلى المدينة القديمة، الأفلاج، أبواب مسقط الثلاثة، جامع قابوس، مرتفعات القرم، حي اللواتيا، الوادي الكبير، سينما عمان بلازا، دوار الوطية، قرية صيادي سداب، الرقصات في ساحة ريام.

حاولت أن تكون سيدة أعمال حقيقية، لا تكتفي بالجلوس وراء مكتبها، لكنها تستقبل الزوار، تناقشهم، تشارك في ملء استماراتهم، تشير عليهم بالعمل المناسب. طبعت الكثير من الكراسات والكتيبات وأدلة الخطوات وأوراق الدعاية. ترددت على السفارات والقنصليات والفنادق وشركات الطيران وشركات السياحة.

فاجأها بالسؤال: لا بد من صلات بعملاء المكتب.

قال أحمد تاريخ: طالبو الوظائف على قفا من يشيل.

قال مجدي: هؤلاء طرف. مهمتنا هي البحث عن الطرف الآخر، الشركات التي ترحب بالعمالة!

ثالث يوم، أشرف بنفسه على وضع الشانون المعدني في زاوية المكتب. دعاها إلى مشاركته تسجيل قاعدة بيانات، تضم طبيعة المؤسسة، وأنواع المهن، والتخصصات، والمقابلات، وطرق الاختبار والاختيار، والتأشيرات.

عرفت — في وقت قصير — ما لم تكن تعرفه من أصول العمل. تقضي معظم اليوم تستقبل المترددين على المكتب، تملأ الاستمارات، تناقش، تنصح، تدل على العمل المناسب، تشرف على إنهاء إجراءات السفر، تُيَسِّر إنهاء التعامل مع التأمينات، استخراج جواز السفر، والشهادة الصحية، نقل الكفالة، تجديد تصريح العمل، استخراج تذكرة الطائرة. شعرت أنها قد وجدت نفسها تمامًا، وأن ما سافرت من أجله، وعادت لإنجازه، هو ما تنشغل به. تحلم بأن تكبر، وتتوسع.

قال مجدي مخيمر: كان لا بد — قبل أن نبدأ — بدراسة جدوى؟

– ماذا تقصد؟

– لا بد — لضمان الحد الأدنى لنجاح أي مشروع — أن نُعِد له دراسة جدوى، أي احتمالات المكسب والخسارة.

وفي صوت مُتحفِّظ: لم نعد هذه الدراسة.

– هل فعل ذلك أصحاب المكاتب المماثلة؟

– لا أعرف ... ما أعرفه أنه لا بد من دراسة جدوى.

– لكن المكتب بدأ عمله ... لن أوقفه لأجري هذه الدراسة.

– نستطيع أن نوائم بين العمل والدراسة!

وتحسس ذقنه متأملًا: ما يحدث الآن نذير أشياء ليست جيدة!

ركزت نظرتها في عينيه، تحاول أن تستبين ما يخفيه هدوء ملامحه. تذكر أنها وقعت على شيكات بدون رصيد، أو إيصالات أمانة.

– ربما لن أستطيع دفع قيمة هذه الشيكات في الموعد المحدد.

– إنها مجرد إجراء شكلي ليحتفظ الرجل بحقه!

وحاول أن يكسو صوته نبرة مطمئنة: ما دامت النيات طيبة فلا قلق.

ضغطت بأصابعها على جبهتها، كأنها تعاني صداعًا، ساورها الشك في موقفه، سر ما ينطوي عليه اهتمامه وتصرفاته.

حدست أنه يستعير صوتًا غير صوته، هي تكره نظراته التي تلاحقها، لا تفارق وجهها، تتسلل إلى ساقيها. تعاني ارتباكًا إن لامس يدها، يتعمد ملامسة يدها.

أيقظ في نفسها — بكلماته وإيماءاته والمعاني التي تحملها عيناه — مشاعر لم تلتفت إليها من قبل، ولا عرفت أنها موجودة.

تراجعت — بعفوية — لما احتوى كفها في راحتيه، قربهما مفتوحتَين من فمه، وقبلهما.

ما بذلناه من جهد يستحق أكلةً من محمود السماك.

بدا صوته ممتلئًا بمعانٍ لم تفهمها.

تكرر شعورها بالدوار، تستند إلى ما يُعينها على الوقوف. تثيرها الروائح، فتشعر بالغثيان. خشيت أن تبوح لأمها، فتسيء الظن.

لم تعُد تجد — وسط انشغالها — لحظات، تختار ما تحبه من الطعام. تكتفي — وقت الغداء — بطلب ساندوتشات من شارع محمد علي، لا تشترط نوعية الساندوتشات؛ أي شيء لإسكات الجوع!

اكتفت بالقول: لا أحب السمك.

أدركت أنه أجاد التسلل إلى رأسها، والتعرف إلى ما يشغلها. مع أنها لم تكن رأته من قبل، فقد تبينت أنه يعرف عنها أشياء كثيرة.

– هل تأذنين أن أناديك هالة؟

أومأت بالموافقة، وظلت صامتة.

مد يده لمصافحتها، ضغط على أصابعها، لم يفلتها إلا بعد أن حدجته بنظرة مؤنبة.

كيف واتتها الجرأة لتبعد عطية عن حياتها؟ هي الجرأة التي تفتقدها في مواجهة تصرفات مجدي مخيمر؛ اقترابه — بلا مناسبة — منها، تعمده ملامسة اليدين، استعارة صوت — لم تألف سماعه — في وجود المترددين على المكتب أوقات العمل، لا هو صوت رجل ولا صوت امرأة.

تشعر — عند تهيؤها للنزول من السرير — بما يشبه الغثيان، تعاني — أثناء اليوم — هبات سخونة في رأسها، تفاجئها نوبات دوار شديدة. عافت نفسها الطعام، لا تأكل، وإن أكلت لا يستقر الطعام في جوفها، ترفض حتى أن تنظر إليه. ربما يفاجئها صداع مؤلم في جانب الرأس، يضغط على أذنها ووجنتها، يحرك القيء في بطنها. اعتادت الشعور بالغثيان والدوار والزغللة والرغبة في التهاوي إلى الأرض.

تقرأ صفاء ما تعانيه، تترك لها الحجرة، تغلق الباب، تلقي نفسها على السرير، وتبكي.

فطنت إلى اقترابه منها، اقترب إلى حد شم عطره، عندما شعرت بأنفاسه تلسع رقبتها. أحاطها بساعده، أطل على الأوراق من فوق كتفها، اصطدمت — في التفاتتها الغاضبة — بوجهه.

أهمل ارتباكها، وحاول أن يواصل كلامه، لكزته بكوعها في جنبه، وتراجعت إلى الوراء. هل أساء فهمها؟

ومضت في ذهنها إيماءات ودعوات مضمرة وكلمات صريحة ووجوه نسيتها، عبرت حياتها، أو ظلت ثابتة في الذاكرة.

قال لها الرجل العماني وهو يداعب الشرشابة المتدلية من دشداشته: هذا البحث الذي تجرينه، أنا أولى به!

في البيت العماني أسفل الجبل، بدا الرجل ذو الدشداشة البالية، والقدمان الحافيتان، شاردًا عن الأسئلة.

وافقت على عرض وزارة الشئون الاجتماعية، لزيادة دخلها، وللتخلص من العيش ما بين المدرسة وبيت المدرسات.

– تتزوجينني يا حلوة؟

لاحظت في ملامحه وتصرفاته شيئًا أنثويًّا، الشعر الناعم المنسدل إلى الكتفين، العينين الواسعتين، الأنف الدقيق، الشفتين الرقيقتين، الصوت الناعم، اليدين المعبرتين بالميل إلى أسفل.

فاجأها القول، تلفتت في المكان بعفوية، تطمئن إلى وجود أسرة.

بدا الطريق الترابي، القريب من سوق السيب، خاليًا، كان الوقت ظهرًا، وما يشبه الألق يتصاعد فوق تراب الطريق، أمام الباب المفتوح.

شعرت أن روحها تتسرب منها.

التفتت — بتلقائية — ناحية محمد علي؛ الشارع يشغي بالزحام، الرؤية تشحب في غلالات الأتربة، أذان العصر يرفع في جامع سيدي منصور، الأصوات تترامى بالنداءات والأدعية والصراخ والشتائم، وثمة عصفور تراقص أمام الباب المفتوح، ثم فزَّ طائرًا.

انزلقت يده، تراجع بأعلى صدره: ماذا حدث؟

أنت …

وحاولت التعبير بيدَيها، ثم ظلت صامتة.

– أناقشك.

أحست بيده تقترب من صدرها، أجفلت ومالت إلى الوراء.

– بالكلام.

دون أن يبدو عليه ضيق: أنا مثل أبيك.

– بابا لا يفعل هذا.

كتمت في نفسها مشاعر القلق والخوف، تعاني التوقع أن يقدم على ما لا تتصوره، كلماته وتصرفاته كأنها تمهيد لأفعال تالية. تحاول إنهاء الموقف: الكلام فيما يجب إعداده، الشكوى من إلحاح المتعاملين، الاتصال بشركات الطيران والفنادق والسفارات. نفضت رأسها بهاجس عناقه لها، ذراعه التي تكاد تلامسها، تحيط خصرها، تعانقها بما لا تملك رده. يظل التوقع قائمًا، يغذيه إلحاح الكلمات والإيماءات وتعمُّد الملامسة.

بدا أبوها منشغلًا بسرحاته، وأهملت مصارحة أمها، لن تجد ما تقنعها به في المأزق الذي يحاصرها، ستجاوز أمها النصيحة إلى اللوم والتوبيخ، لماذا تصر على ما في دماغها؟!

تراجعت بظهرها فلا يراها عطية وهو يهبط سلالم حارة قلعة طياب العريضة، المتآكلة. الدكاكين — على جانبَي الحارة — مغلقة، أو مواربة. ظلت في ارتباكها، حتى مال ناحية اليمين، ومضى في شارع محمد علي إلى ميدان العتبة.

أسقطت علاقتهما من نفسها، هل تظل على حالها، أو تمضي إلى نهاية لا تتصورها؟

لم تعُد قادرة على استرجاع ما مضى، ولا التآلف مع أحوالها الجديدة، كمن تسقط ثمرة من كيس يحمله، ينحني لالتقاطها، تسقط ثمرة ثانية، وثالثة، يخلي الكيس من يديه فتسقط كل الثمار. فقدت القدرة على التواصل، حتى مع القريبين، مَن كانوا أصدقاءها بالفعل؟

تنبهت — وهي تخترق الأرض الخلاء المفضية إلى طريق السلطان قابوس — أنها صارت مسئولة عن نفسها، لا تنتظر رأيًا، ولا مشورة، ولا أمرًا. تختار الطريق التي تطمئن إليها.

كل ما بذلته كأنه يتلاشى.

تكاثرت الهمسات والنظرات المستريبة والشامتة. زادت الشائعات بما لا قِبَل لها على تكذيبه، كأنها الأصوات المتلاغطة، الصاخبة، تعجز الأذنان عن سماعها، فيصمهما المرء عن كل ما حوله.

الحجرة المظلمة، الحجرة المغلقة، تثير الخيال والفضول، والرغبة في معرفة ما يجري، الناس أميَل إلى تصديق ما يسهل تكذيبه.

لا تعرف من ألقى حجر الدائرة الأولى، الدوامة الأولى، جاورتها دوائر أخرى، دوامات أخرى، تقاربت، التصقت، تحولت إلى دائرة واسعة، دوامة هائلة أحاطت بالمدرسة أُمَيمة خفاجي، حاصرتها. من التي اختلقت الشائعة، وسربتها.

تنقلت بين أفواه المدرسات في تصديق، أو لأنها ترددت بالهمسات. قالت مها الصبان إن نفي الشائعة يثبته فحص طبي في مستشفى خولة، يؤكد الأطباء إن أُمَيمة على عذريتها، لم تصل علاقتها بالشاب العماني حد الخطر.

تهامست الأفواه — في البداية — بالشائعة، نقلتها عن حسن سكركر سائق الباص الهندي، نقلتها إلى إدارة مدرسة شمساء، وبيت المدرسات، انتهت إلى مكتب وزير التربية والتعليم.

بصقت معزوزة كريم الدين في عِبِّها، واستعاذت من الشيطان: شائعة للتشويه.

وهزت إصبعها مذكرة: ذلك ما حدث مع أخريات.

قال الأسطى حكيم: دكاكين المناصرة معارض، لا تسبب إزعاجًا أو تلوثًا أو تشويهًا!

ومصمص شفتيه في تصعب: الحال واقف ونحن في وسط البلد، ماذا سيحدث لو انتقلنا إلى الأطراف؟!

لشائعة نقل المحال سبب آخر: تريد الحكومة توسعة سجن الاستئناف، خلف مديرية الأمن.

قالت أم عطية: لماذا لا ينقلون السجن؟

وتغلف وجهها بالاستياء: السجن لا يكون وسط البيوت!

تمنَّت بينها وبين نفسها أن تذهب المناصرة في الماضي.

لم تعد المناصرة هي المناصرة، ولا ناسها هم الذين كانت تعرفهم، أو تصورت أنها تعرفهم. الحياة أسوأ ما يمكن تصوره، الناس غير الناس، والدنيا غير الدنيا. هذه الدكاكين والمقاهي ومعارض الموبيليا — لا تذكر ما كان قبلها — يأتي في بالها كالومضات، وإن تقلصت ورش النجارة. حلت بدلًا منها معارض للموبيليا، ومخازن تُفتَح حتى ينتهي العمال من نقل قطع الأثاث إليها، ثم تُغلَق.

لم تعُد الأخشاب ولا أدوات النجارة ولا صناعة الموبيليا هي صورة الحياة — وحدها — في المناصرة. زاحمتها آلات البناء الضخمة؛ الكسَّارات، الهراسات، الخلاطات، الرافعات البرجية، الرافعات الشوكية، الشاحنات القلابة.

حتى عادات الناس تغيرت. أصبحوا أكثر استعدادًا للسفر، ما رفضه أبواها حين عرضت الفكرة، بدوا أكثر ميلًا إلى تبادل الأحاديث، يتسولفوا حسب التعبير الخليجي، ولعله تعبير هندي!

أبدت ملاحظة عن الجالسين في المقاهي ساعات الصباح، متى يعمل كل هؤلاء؟

المقاهي ظاهرة تغيب عن مسقط. المطاعم كثيرة، أطعمة من كل الدنيا، عرفت أسماء البرياني والسالونا والمشاكيك والحلوى العمانية، معظمها لم تتذوقه من قبل.

قرب الطبيب اللمبة المضاءة من أنفها، وسع بالجفت فتحتَي الأنف: هذا ليس مجرد زكام، إنها لحمية سدت الأنف!

أطلقت آهة ممطوطة: يصعب عليَّ النوم تمامًا.

– كيف تنامين دون تنفس؟!

وأطرق برأسه وهو يقضم شفته السفلى: لا بد من عملية بسيطة، وأيضًا إجراء اختبار حساسية كي لا تعود اللحمية!

نحَّى الطبيب — في زيارتها التالية — نتيجة الأشعة على مكتبه: اللحمية ستعود ... سببها تراب الموكيت!

وحدجها بنظرة مستغربة: في بيتك؟!

غطت حجرات الشقة، والصالة، بالموكيت المشجر. أغواها الخصم الهائل في أسعار الموكيت بمخزن العاصمة. اشترت مثلما اشترت غالبية المدرسات.

وهي تغطي أنفها بورقة كلينكس: أتيت به من الخليج!

– لا أعرف ظروف استعماله هناك، لكن المناخ هنا معظم السنة حار ومترب.

آخر النهار تعود إلى البيت، تلزم حجرتها، لا تلتفت إلى صفاء إن كانت نائمة، أو تصلي، أو تقرأ القرآن، أو تتحرك لعمل البيت، يشغلها تناسي تعب النهار، يشمل جسدها، وأعصابها، وما يرهق رأسها.

تغمض عينيها، لا تريد أن ترى أحدًا، لا صفاء ولا أمها ولا أبيها، ولا أي أحد، لا تريد الكلام ولا الإصغاء. فقدت القدرة على التواصل، حتى مع القريبين، مَن كانوا أهلها وأصدقاءَها بالفعل.

لم تعد تملك وقتًا للبحث عن شقة جديدة، الخروج من المناصرة وارد، وتتمنى حدوثه. أزمعت أن تظل في سكة المناصرة على أن تعيد طلاء الشقة وتأثيثها. انشغلت بمتابعة عمليات الدهان في الشقة، واستبدال السيراميك بالبلاط في أرضيات الغرف، واختيار المفروشات والستائر ...

تشعر— أحيانًا — أنها لا تنتمي إلى المناصرة، ولا حتى إلى هذه الشقة التي تقاسم صفاء إحدى غرفها. هي ليست جزءًا من دنيا المناصرة، ما تعيشه، وتتطلع إليه، يختلف عن حياة الذين يخالطونها. يملأها الشعور بأنها لن تفك حبسها إلا بالخروج إلى الدنيا

الواسعة، بعيدًا عن محمد علي والعتبة وكوم سلامة وسوق الخضار وسوق التلات وشوارع الأزهر وعبد العزيز والموسكي والجيش.

لماذا عادت؟

غنى المدرسات لمحمد فوزي في عيد ميلادها، تذكرت أغنية من طفولتها، فغنتها:

العفو يا سِيد المِلاحْ  جسمي صَبَح مُضْنى سقيمْ
جد بالوصالْ بِشفِي الجراحْ  يا مُنْيتي أنتَ الحكيمْ

رنت ميسون النداف ناحيتها بنظرة متفحصة: هذه أغنية عوالم استمعت إليها في القاهرة.

القاهرة!

قفز الاسم إلى ذهنها.

أحست كأن شيئًا يتحطم داخلها.

هل تأخرت في العودة؟ وهل كان عليها أن تعود من زمن؟

ربما اتخذت قرارها — في تلك اللحظة — بالرحيل عن مسقط.

كان قد استقر عزمها على البقاء في مسقط، تقطع صلتها بكل شيء، تنسى ماله علاقة بالمناصرة، لم يعد في المناصرة شيء تحزن على فقده. لم تعُد هي الحي الذي تستطيع أن تعيش فيه، ليس فيها من عادت إليهم، ليست الصداقة ولا الجيرة ولا المفردات ولا التصرفات التي تؤذي مشاعرها. ثمة خطأ في علاقتها بمن حولها، كل من حولها، حتى هؤلاء الذين أهملوا ما كانوا يوجهونه إليها — في أيام عودتها الأولى — من كلمات الترحيب. تبدل كل شيء، فغلبها الإحساس بالغربة، أقسى ما في الأمر أنها كانت تحيا في غربة الخليج على أمل العودة إلى ناسها.

لون مجدي مخيمر صوته: كل نجاح مرهون بثمنه.

لاحظت نظرته المتجهة إلى ما بين ساقيها، فضمتهما.

تحرك فمها بكلمات لم تتدبرها، ولا حتى فهمت ما عبرت عنه. ألغى الغضب قدرتها على الكلام بصورة صحيحة، ما جاء على لسانها تركت شفتيها تنطقانه.

تناقص رصيدها في البنك بما أخافها. وقعت على مستندات دين، وعلى إيصالات أمانة، وشيكات، قل أعداد المترددين على المكتب، تقلص حجم التعاملات بما يقلق. حتى العملاء الذين نشأت بينهم وبينها ثقة وصداقات أوقفوا التعامل مع المكتب. خامرها قلق

أن تتصل بالبنك — ذات يوم — لتعرف أن رصيدها نفد. تصورت أن ما عندها من المال يكفي، تستطيع أن تنفق طول العمر، دون أن تحتاج إلى عون أحد.

شغلها ما يجب أن تفعله.

ترفض الفشل، الفشل معناه الموت.

كيف؟ لماذا؟ ما الحل؟

الأمور لا تسير كما خططت لها. تمنت فكرة تخلصها من الحيرة التي تتملكها. لم تعُد تفرق بين الصواب والخطأ، ما إذا كان عليها السير في الطريق إلى نهايته، أم اختصاره.

أحست بالعجز عن الحركة تحت ظل أمها، وعن تملك حرية الاختيار، ما تريده، وما لا تريده. لا تعرف حتى ما الذي ينقصها.

– تزوجت النجاح، أخشى أن يشغلني الزواج عن مسئوليات عملي.

قالت شوقية سالم: مصير البنت لبيتها.

– الدنيا تشغي بالمتزوجين.

أخاف أن يفوتك القطار.

هزت كتفيها: أحسن، لا أحب القطارات!

هي لا ترفض الزواج ... لكن: من هو؟

لما تكرر التباطؤ والإيماءة الداعية، هزت رأسها تنفض الهاجس الذي دار في ذهنها كالومضة: ماذا يحدث لو أنها دخلت السيارة؟ التفتت إلى الأمام، وواصلت السير.

إن روت لأمها ما حدث، ربما تموت.

قالت المدرسة معزوزة كريم الدين في اليوم الثالث لغياب الطالبة خولة الرحبي: شائعة صغيرة تكفي لمنع الشبان الذين يتصورونها زوجة مناسبة من زيارة أبيها.

لكزتها مها الصبان في كتفها: لكنها فائقة الجمال.

كانت على ثقة من أن المعرفة لا تكتسب من الكتب، هي نتيجة الخبرات التي يحصل عليها بنفسه، أو يتعرف إليها بالمشاهدة أو السماع. تجد في التقاليد التي يصر الناس على احترامها في العلاقة بين الرجل والمرأة، اختراعات يمكن إغفالها، إهمالها.

فاجأت المدرسات — ليلةً — بالقول: إذا كان للرجل حق الزواج بأربع نساء، فمن حق المرأة أن تتزوج بأربعة رجال.

رمقتها معزوزة بعينَين غاضبَتين: ولمن يُنسَب المولود؟

– لأمه! ... هي التي أنجبته!

قالت معزوزة في نبرة متكسرة: فقدان الشرف موت!

ناوشتها أسئلة عن أسباب اهتمام مجدي مخيمر بها، وما إذا كان يشغله ما يريد تحقيقه.

أثار في داخلها شعورًا بعدم الثقة، ساورها الشك في أن اهتمامه بها ليس للمساعدة، هو يقصد ما لا تعرفه.

تومض أمامها رؤًى، لا تذكر إن كانت عاشتها، أو شاهدتها، من قبل، كلهن بنات في مثل سنها: سيدة تخترق شارع الأزهر، وعلى صدرها طفل تحتضنه، تسير إلى جوار شاب، تلاصقه تمامًا، وأيديهما متشابكة، ونظراتهما كأنهما فقَدَا الصلة بالعالم، تطيل فِصال بائع الشاي تحت الباكية المطلة على ميدان العتبة، تحمل أكياس فاكهة في هيئة العودة من السوق، يحملها الرجل بين يديه في قلب الغابة، تواجه الأخطار المحيطة ... مشاهد كثيرة، ومضات، تلح على ذهنها في الصحو والمنام، كأنها مؤشر لما تخفق في تبين أسبابه.

كل شيء يتآمر لهزيمتها. لو أن ما تواجهه ظل كما هو، فستطالعها الهزيمة في نهاية الأفق.

استعادت كلمات أمها: تقولين الرجل غني ... ويحبك.

– لكنني لا أحبه!

– من أجبرك؟! ... ضعي خطًّا أحمر، امنعيه من تجاوزه، اتركيه في وهمه يحب ويعشق، العبي معه لعبة القط والفأر ... هل ينهزم الفأر في أفلام الكارتون؟

– لعبة سخيفة!

– ظروفنا كلها سخيفة، حياتنا كلها سخيفة!

وعيها تعطل، لا يتيح لها التعامل مع الناس من حولها، تغير شيء ما أخفقت في فهمه. أحست أنها تفتقد ما لا تعرفه، وأنها، فقدت اتجاهها، لم تعُد تعرف إلى أين، ولا خطواتها التالية، واجهها أفق غير محدود من الفراغ، لا تعرف كيف تتحرك فيه، كيف تشغل مساحته الممتدة، اختلطت الأسماء والأماكن والتواريخ.

بدا المستقبل ضبابيًّا، لا تستطيع تبيُّن ملامحه. هل ينقضي العمر دون أن تبلغ ما أجهدها السير في اتجاهه؟

قالت كمن تهمس لنفسها: لا أعرف مَن المخطئ: أنا ... أم الظروف؟

تداخل الأسى والإشفاق في صوت شوقية سالم: يكفي أنك عانيت الغربة!

لماذا تبدلت الأمور إلى هذه الدرجة؟

كل شيء تغيَّر، لم تعد الدنيا على ما كانت عليه. شعرت بالغربة عن كل ما حولها، وأنها تعاني عزلة حقيقية. لم يتغير المكان، وإن أحست بالغربة عنه. كل ما حولها لا ينتمي إليها.

المشاعر نفسها ناوشتها في صالة الدخول بمطار السيب، وفي صالة الخروج، التخلي عن أصدقاء ومعارف، ومواجهة ما يرسمه الخيال.

لم تعد — كما كانت — جزءًا من الحياة في المناصرة، اختيارها العزلة تحول إلى قيد يصعب الفكاك منه.

ثبتت نظرها — في رحلة العودة — على جانبَي الطريق، تلتقط ما لن تشاهده ثانيةً، ما يصير إلى الماضي.

فكرت في العودة إلى مسقط، تمضي إلى المطار، تركب الطائرة، تنزل في مطار السيب، تعود إلى الحياة التي اعتادتها.

ارتسمت على وجهها خيبة أمل واضحة: يبدو أنه لم يَعُد لي في المناصرة إلا الذكريات!

قالت شوقية سالم: ونحن؟ ... صرنا ذكريات؟ متنا؟!

– لم تعد المناصرة التي تركتها ... تغيرت تمامًا!

قالت شوقية سالم: لو أن خلفتي كانت ولدين بدلًا من الشيخة، والتي لا يعجبها العجب؟!

شعرت أنها صارت إنسانة أخرى غير نفسها.

إذا كانت المناصرة قد تغيرت، فقد تغيرت هي أيضًا. هي لا تنتمي إلى العالم الذي تعيش فيه. اختلفت نظرتها — في سِنِي غيابها — إلى الناس والأشياء، الحياة في المناصرة فصلتها عنهم، بما يصعب تعويضه. غاب ما اعتادته من الصداقات والجيرة وورش النجارة وأغنيات العوالم. مفردات جديدة تطالعها، لا تفهمها، تختلف حتى عن سيم العوالم الذي حفظته تمامًا. المفردات الجديدة مغايرة لكل ما اعتادت سماعه وقوله في سكة المناصرة.

تبلورت أمنياتها في أن تفر من المناصرة، لم تعد قادرة على تحمل ما تراه، ما تعيشه، الحياة في الشوارع الضيقة، المتداخلة، المنطقة ما بين ميدان العتبة وميدان القلعة، شوارع ودروب وعطوف وسلالم حجرية صاعدة وهابطة، ألفت اختراقها، ورؤية ما تشغي به. لا توجد قوة تستطيع أن تقيد حركتها، تمنعها من السير في الطريق التي اختارتها.

رفضت صفاء أن تقيم معها في شقة جديدة: لا أتصور أني أبتعد عن المناصرة.

تلفتت بالارتباك والخوف في الحجرة الخالية. تشاركت الرؤى واختلطت. تجاورت الأزمنة، تلاصقت، لم تَعُد تحيا زمنًا محددًا.

المشاهد تضغط على ذاكرتها، تومض، تختفي، مثل خيالات.

لم تعد ذاكرة أبيها كما كانت من قبل، ما يتذكره يرويه في عبارات قصيرة، مدغمة.

مَن خرج مِن داره اتقل مقداره، صدمها المثل حين استمعت إليه — للمرة الأولى — من الشيخ العماني، وهو ينظر إلى زحام المسافرين حول كاونتر المصريين في مطار السيب.

تُولِي الكاونتر ظهرها، ترفض أن تختلط بزحام المهانة. تكتفي بحقيبة واحدة في يدها، تقف في نهاية الطابور القليل العدد، للمسافرين العاديين، تكره التمييز والمفاضلة، ما تستحقه تأخذه، لا تتجاوز موضعها، وترفض أن يتجاوزها أحد.

رفعت رأسها، وضمت — بعفوية — فتحة البلوزة. سارت في ظلمة البواكي بكلوت بك، ثم مالت إلى شارع باب البحر، فطنت إلى أنها أخطأت الطريق، أو نسيته. في التقاء أول الشارع بالميدان، نظرت — بجانب عينها — إلى محمد علي، اخترقت الشارع إلى ميدان روي، مضت في شارع الأزهر، عبرت تقاطعه مع شارع بورسعيد، خلفت وراءها جامع البنات، إلى زحام سوق التلات، تتعدد الاختيارات للتسوق ما بين سوق السيب، أو روي، أو شارع نور الظلام بمطرح، لم يشغلها تعب قدميها في التنقل بين الشوارع والحارات والدروب والأزقة والقيساريات والشبابيك المتقاربة والمصاطب — أمام الدكاكين — تكاد تتلامس، والواجهات مليئة بالبضائع، ونداءات باعة السمك في سوق مطرح، وروائح البخور والشواء والعطارة، والطريق الصاعدة إلى ميدان القلعة، بين الرفاعي والسلطان حسن، وحواري المغربلين والخيامية وسوق السلاح واليكنية، واختلاط أزيز منشار، وضربات مطرقة، وصوت اهتزاز مثقاب، والتصفيق في الغناء الخليجي بديلا للإيقاع الموسيقى، وعطية، في جلسته على مصطبة الدكان، يتشاغل بهز أوتار العود بأظافره، من حوله الآلات الوترية وآلات النفخ والإيقاع والصاجات. ضغطت على جبهتها، كأنها تثبت الصورة في ذاكرتها، هذا ما، حين مضى بها التاكسي في طريق السلطان قابوس. التفتت ناحية بيت المدرسات، وفي داخلها شعور أنها لن ترى المكان ثانية. تشاغلت عن الأسئلة والمناقشات والملاحظات بين المدرسات الثلاث اللائي صحبنها في التاكسي. وضعت تركيزها في المكان الذي لن تراه ثانية. قالت ميسون النداف: نحن نعيش علاقات عابرة، محكوم عليها بالتلاشي. تذكرت — في اللحظة نفسها — قول أبيها: ادخري ما استطعت

قبل أن تعودي إلى القاهرة. ونطقت ملامح الأسطى حكيم بالارتياح، وهو يتحدث عن عملية لتصنيع الأطراف الخشبية، بدا الأمر صعبًا، ثم أتقنه. يعتز بقدرته على صنع منابر المساجد بطريقة التعشيق، لا يستخدم مسمارًا واحدًا، وقال أبوها: العوالِم انتهوا ... لكن أمك لا تكف عن الغناء! والتمعت عينَا أحمد تاريخ بالدمع، وهو يتكلم عن اعتزازه بأنه شارك فرقة حسب الله — على رصيف قهوة التجارة — في عزف السلام الجمهوري لموكب عبد الناصر في اتجاهه من ميدان العتبة إلى ميدان القلعة. توقف الموكب حتى انتهت الفرقة من أداء السلام، وميزت الطريق إلى مسقط بمناشر الغسيل الهائلة في قرية سداب، وقال عطية إنه حاول أن يخرجها من قلبه، فلم يستطع، تنكرت لكل ما كان بينهما من قبل. اتهمته بما تعرف أنه ليس فيه، وتناهى رفع الأذان من مسجد السلطان قابوس، واهتزت الراقصة، تمايلت، تثنت، قفزت، لفت، دارت، علت الاعتراضات لإبقاء خيرية أبو الرضا حلة الخضار على البوتاجاز، ترفض رفعها لتظل ساخنة، واعتذرت لضابط المرور بكلامها مع سائق التاكسي، فأهمل الإشارة الحمراء، وأغلقت باب الحجرة من الداخل، اندفعت إلى السرير، ارتمت عليه، وضعت وجهها بين كفيها، وراحت في البكاء، وقالت أمها: أنت سافرت إلى الخليج لترتاحي، لا لتتعبي أكثر، وانفرجت شفتا الوزير المصري — في مبنى السفارة — عن ابتسامة، مستغربة: لماذا لا تظهرون هذه الهمة في مصر؟ وقالت شوقية سالم: نحن نتحسر على الماضي؛ لأننا ندرك استحالة استعادته، واستلقت مها الصبان على جنبها فوق السرير، بيدها ترانزستور، تُصغِي إلى ما فيه، ربما علا صوتها: في بيروت أحداث مهمة، وتبادلت المدرسات رواية الحكايات والمعلومات والنكات والمشكلات الشخصية، واخترقت حي الهنود، على جانبيه بيوت الصفيح، خلف مساكن الحمرية، خراب هي التسمية التي يطلقها الهنود على الأشياء المستعملة، يردد العُمانيون التسمية، لا محال للبضائع القديمة، ولا عربات خشبية تسبق النداء: بِكيَا! وغالبت التأثر لقول أبيها في التليفون — أول مرة يأتيها صوته — أنت سافرت للعمل لا للإقامة، ولاحظت — وهي تجري بالقلم على الورق — اتجاه نظرات مجدي إلى منبت نهدَيها. سحبت يدها من ضغطة أصابعه، اعتذرت عن أكلة سمك عند محمود السماك. جعل يديه في وضع الاستدارة، دلالة الرغبة في أن يحتضن الثديَين براحتيه. شعرت بما حولها يهتز. تشبثت بالكرسي تحتها، تحاول أن تقي نفسها من السقوط. مد ذراعَيه، يعينها حتى لا تسقط. ما أذهلها أن صوتها كأنه يأتي من هوة، تتكلم. ولا يبدو أن مجدي مخيمر يسمعها، أو أنها تسمع نفسها.

محمد جبريل – مصر الجديدة – ٢٠٠٦م

هنـــداوي